مُحمّد حَسنين هيْكل

مصـر والقرن الواحد والعشرون

ورقة في حوار

دار الشروق

مصـــر
والقرن الواحد والعشرون

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس: 93091 SHROK UN
بيروت: ص. ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨٦٧٥٥٥ - تلكس: SHOROK 20175 LE



مصـــر
والقرن الواحد والعشرون

ما بين السابع والعشرين والثلاثين من شهر أكتوبر ١٩٩٤ انعقد فى مدينة الإسكندرية المؤتمر الثلاثون لجماعة خريجى المعهد القومى للإدارة العليا تحت عنوان «مستقبل التنمية فى مصر والدور المنتظر لها فى القرن الواحد والعشرين» .

وكانت هذه الورقة هى المساهمة التى قدمها الأستاذ محمد حسنين هيكل فى افتتاح أعمال هذا المؤتمر . وكان أهم ماقصد إليه منها هو ألا تكون مجرد بداية مؤتمر ، وإنما أن تكون إلى جانب ذلك بداية حوار .

إننى واحد من الناس الذين يؤمنون أن تحدى العصر الجديد ، وربما كل عصر هو تحدى الإدارة فى جميع المجالات . والحقيقة التى ننساها أحيانا أن السياسة فى صميمها هى علم وفن إدارة موارد المجتمعات ، بما فى ذلك الموارد الجغرافية والتاريخية والإنسانية والاقتصادية والثقافية ، وبما يحقق لهذه المجتمعات صحتها ورفاهيتها داخل حدودها ، ومصالحها وأمنها وراء هذه الحدود .

وقصارى ما أحاوله ـ فى هذه الورقة ـ هو أن أعرض مجموعة تصورات سياسية عامة تتصل بهمومكم وتتوافق مع اهتمامكم باستشراف القرن الواحد والعشرين .

وقد أسجل مسبقا أن تصورات كل منا تظل متأثرة بموقفه وموقع نظره ومنهجه فى الاجتهاد ، وبالتالى فإنى أقدر سلفا أن بعض ما أعرضه من تصورات قد يختلف مع تصورات أخرى، ويطمئننى ـ فى كل الأحوال ـ أن اختلاف التصورات مفيد فى البحث عن الحقيقة .

□ □ □

سوف أبدأ بمدخل تمهيدى عن الإدارة السياسية أقول فيه إن إدارة أى سياسة تتطلب ما يلى :

□ أن يكون هناك هدف أو أهداف عامة مرغوب فيها ومطلوب تحقيقها ، وتكون

هذه الرغبة وهذا الطلب موضع إجماع أو أغلبية وطنية مقتنعة به وعلى استعداد للعمل من أجله والبذل فى سبيله .

□ أن يكون هذا الهدف واضحا ومحددا ، لأنه ليس أخطر فى السياسة من الرؤى الغائمة والتحركات التى لا ترى لنفسها مقصدا تركز بصرها عليه باستمرار ، وقد تحيد عنه بحكم طبيعة الأرض ، لكنها إذ تحيد تلتف إليه من مسلك آخر.

□ أن تكون لهذا الهدف إمكانية فعلية أو مضمونة تسمح بتحقيقه . فليست هناك فائدة من أهداف واضحة ومحددة ، إذا كانت الوسائل والأدوات الضرورية لنوالها ليست موجودة وليست محتملة .

□ أن تتوفر لهذا الهدف مشروعية تجعله مقبولا ليس فقط من أصحابه ، وإنما من غيرهم . والمشروعية التى أتحدث عنها الآن ليست مشروعية القوانين والأعراف فقط ، وإنما هى أيضا مشروعية العصر بقيمه وموازينه .

□ أن تتكفل الحياة السياسية بأن تعطى لإدارتها أصلح وأنضج العناصر المهيأة لتحمل المسئولية ، بما يوفر درجة معقولة من الكفاءة تحفظ للهدف حدا مأمونا من فرص النجاح .

□ وأخيرا أن تقدر الحياة السياسية على أن تعطى لقوى الأمة حقها فى الرقابة على إدارة العملية السياسية فى مجملها ، وأن تكون الرقابة من مدخل الاهتمام والمناقشة والمتابعة أكثر من مدخل التحقيق والتفتيش والعقاب !

□ □ □

أنتقل من هذا المدخل التمهيدى إلى تحفظ سريع يخطر ببالى أن أشير إليه من

باب التحوط والسلامة ، وذلك أننى أتمنى لو نراجع أنفسنا فى كثرة الحديث عن القرن الواحد والعشرين ، وخشيتى هى أن يضيع عنوان « القرن الواحد والعشرين» ويلحق بعناوين أخرى سابقة أتلفها التداول بسبب وبغير سبب ، مثل عناوين « السلام» و«الشرعية الدولية » و«النظام العالمى الجديد » إلى آخره .

إننا بدأنا باستعمال عنوان « السلام » فى قضايا السياسة ثم سحبناه بعد ذلك مسافات إلى « مقهى السلام » ، و«مقلاة السلام » ، و«بقالة السلام » ، و«جزارة السلام» ، بل و«سجن السلام » !

وأشهد أنكم فى هذا المؤتمر ـ وحسب ما رأيت وقرأت ـ تستدعون تعبير القرن الواحد والعشرين استدعاء لائقا ومسئولا . لكن تحسبى هو من أسلوب شاع فى حياتنا العامة بالنسبة للأفكار ، كما شاع فى حياتنا اليومية من قبل بالنسبة للسلع ، وهو أسلوب المغلفات والمعبآت والمعلبات والمحفوظات ، تستهلك بسرعة ، وتستهلك طوال الوقت ، وتستهلك فى كل مكان من المحلات إلى الشوارع إلى البيوت على طريقة «خذ معك» ("Take Away") .

وأصل بعد ذلك إلى مجموعة من الملاحظات أريد الإشارة لها فيما يتعلق بأى محاولة هنا ، أو فى أى مكان آخر ، لاستدعاء عنوان القرن الواحد والعشرين وما يندرج تحته أو يتصل به .

وأعرض هذه المجموعة من الملاحظات على النحو التالى :

١ ـ إن إيقاع الزمن الذى نعيش فيه الآن داع يسبق غيره من الدواعى التى تفرض الحذر فى أى تناول لقرن بأكمله . ولقد كان ذلك صعبا فى كل الأزمنة ، وهو بالتأكيد أشد صعوبة فى القرن المقبل حيث السباق على أشده فى العلوم والتكنولوجيا وتطبيقاتها ، وفى الأفكار وانتشارها ، وفى العوالم واتصالها .

والأجدى أن يكون النظر إلى حقبة أو حقبتين . . ربع قرن على أكثر تقدير ، لأن

أكثر من ذلك يتخطى المعقول ، وقد يصبح استسلاما لأنواع من الوهم تعفى العقل من مسئوليته حين تسلبه مفاتيح الممكن وتلهيه بمغاليق المستحيل!

وإذا نظرنا إلى مجال واحد ، وهو مجال المواصلات والاتصالات وما طرأ عليه فى سنوات أخيرة معدودات ، لرأينا صورة باهرة لحركة التغيير . فإذا أضفنا إليها معدلات التراكم وتأثيراتها المتبادلة فى كل النواحى ـ لأدركنا صعوبة استطلاع المستقبل بعد حدود معينة بقدر كاف من الجد والثقة وشبه اليقين .

٢ ـ إن الفواصل الرئيسية فى الزمن ـ الانتقال من قرن إلى قرن فضلا عن الانتقال من ألفية ثانية فى التاريخ الميلادى إلى ألفية ثالثة ـ هى مناسبات تستحق الحفاوة والاحتفال والفرح ، ثم إنها مفعمة بالدلالات الرمزية ، لكن هناك محظورا يجب أن نتوقاه وهو أن يتصور أحد منا أنه ينطلق بصاروخ من كوكب إلى كوكب . والذى يجب أن نستوعبه بعمق هو أن الزمن مسار تشتد الحركة عليه أو تهدأ ، يتسارع إيقاعه أو يبطئ ، لكنه تيار متصل متدفق ، وهو غير قابل بالطبيعة لأن ينقطع .

وإذا تصورنا أننا أمام جديد لاعلاقة له البتة بما سبقه ، إذن فإننا نحتاج إلى مراجعة قوانين الحياة ذاتها .

إن تصور عالم جديد ينشأ فى استقلال كامل عما قبله وهم مخالف لحقائق الأشياء حتى بالنسبة لأعظم التغييرات الكبرى فى تاريخ البشرية وهى الأديان. فالمبادئ الأساسية فى أديان التوحيد الثلاثة الكبرى لم تتغير كثيرا فى جوهرها ولم تتغير كثيرا فى قصصها . بل إنه فى الدين الواحد قصدت الحكمة الإلهية حتى فى الأركان والشعائر ألا ينقطع الحاضر عن الماضى ، ومن ذلك مثلا أن شهر رمضان كان صياما قبل الإسلام ، كما أن الحج إلى البيت الحرام كان مألوفا قبل الرسالة النبوية سواء بالطواف أو بالسعى ، وهذه عظة

لموجبات الاستمرار جنبا إلى جنب مع موجبات التغيير ، مع أن المصدر قدسى وهو قادر على أن يعيد الخلق كله من جديد .

وربما كان علينا أن نتذكر أن أكبر المؤثرين على القرن الواحد والعشرين فى مجالات الطبيعة والأحياء والقوة ـ وهى المجالات المعرضة لأوسع تغييرات محتملة ـ رجال ولدوا فى القرن التاسع عشر . أشير إلى رجال من طراز « ألبرت إينشتين » و«تشارلز داروين » و«أبراهام لنكولن» ـ أى أننى أعنى « نظرية النسبية » و«نظرية النشوء والارتقاء »، وأعنى ـ أيضا ـ الولايات المتحدة الأمريكية كما نعرفها الآن بقوتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية .

٣ ـ تتصل بذلك مباشرة قضية هامة لايجوز إغفالها ، وهى أن هناك عوامل حاكمة فى التطور الإنسانى مهما تغيرت العصور ومهما بلغ بعد وعمق تقلباتها ، وفى ظنى أن العوامل الحاكمة الرئيسية ثلاثة هى : المكان والزمان والبشر .

وحين أتحدث عن المكان فحديثى بصفة عامة عن الجغرافيا ، أى عن الأرض والموقع والمناخ والموارد .

وحين أتحدث عن الزمان فحديثى بصفة عامة عن التاريخ ، أى عن تواريخ الشعوب والحضارات والصراعات والأفكار والعلوم .

وحين أتحدث عن البشر فحديثى بصفة عامة عن نشأة المجتمعات وعلاقاتها فى الداخل ومع الآخرين ، بما فى ذلك عوامل القوة والثروة وتبادل المنافع ، والنمو والتراكم والمنافسة .

ولو أردنا مثالا بارزًا لتأثير هذه العوامل الحاكمة فى السابق واللاحق من حياة الشعوب فإن الولايات المتحدة الأمريكية مثال حى لظاهرة الاستمرار والتغيير ، خصوصا أنها القوة الأعظم فى هذه اللحظة عند تداخل فواصل الزمان من قرن

إلى قرن ومن ألفية إلى ألفية .

سوف يلفت نظرنا أننا أمام مجتمع ملىء بروح المخاطرة ، جاهز لاستعمال القوة، عملى فى استعمالها لتحقيق مصلحته بغير رادع من أى نوع ، ثم هو مجتمع غنى وافر الغنى ، وقد مكنه ذلك الغنى من أن يسبق ويتفوق .

وإذا تساءلنا ما إذا كانت هذه الخصائص صناعة معجزات ، أو أنها صناعة جغرافيا وتاريخ ، لوجدنا أن تلك الأخيرة هى الحقيقة ، وبمقدورنا أن نفحص خلاياها وأن نعثر فيها على خصائصها المبرمجة بفعل التجربة الأمريكية وبداياتها .

مجتمع مغامرين ركبوا المحيط ، قاصدين إلى وطن جديد . وكان عليهم أن يأخذوا الأرض وأن يأخذوها بالقوة دون أن يتوقفوا طويلا أمام الحقوق الطبيعية أو القانونية ، وكان عليهم أن يروضوا ويقهروا هذه الأرض وسكانها بأى شكل ، وقد روضوا وقهروا قارة بأكملها من أغنى قارات الدنيا ، ثم إنهم بعد أن رسّخوا أقدامهم حيث وصلوا عادوا إلى عالمهم القديم لتنمية الثروة وبسط النفوذ .

هكذا ولدت التجربة الأمريكية وعاشت ومازالت تعيش حتى الآن ، وهذا هو منطق الأشياء ، أو قوة الأشياء إذا أردتم .

وإذا أخذنا مثالا آخر ، وليكن ألمانيا ، فسوف نجد أن ألمانيا التى هى بالجغرافيا قلب أوروبا ، لم تتوقف يوما عن مسعاها إلى أن تكون القلب بالسياسة ، وبالتاريخ الذى هو تراكم وتركيز السياسة .

إن ألمانيا باعتبارها قلب أوروبا كانت مشروع « بسمارك » ـ حتى بالحرب مع فرنسا وهزيمتها فى حرب ١٨٧٠ ـ وكانت تلك محاولة الرايخ الأول .

ومشروع « بسمارك » كان هو نفسه مشروع القيصر الألمانى « غليوم» ـ حتى بالحرب ضد بريطانيا وفرنسا ـ وكانت تلك محاولة الرايخ الثانى .

ومشروع « غليوم » كان هو نفسه مشروع « هتلر » ـ حتى بالحرب ضد بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وروسيا ـ وكانت تلك محاولة الرايخ الثالث .

ونفس المشروع ـ ألمانيا ـ قلب أوروبا ـ هو مشروع « كول » .

تبقى الأهداف ثابتة بحكم الجغرافيا والتاريخ ، ويتعلم البشر من درس عصرهم ، ويتجدد المشروع باستمرار وإن كان بوسائل مختلفة .

وما حاوله « بسمارك » بقوة المدفع هو نفسه مايحاوله « كول » بقوة المارك .

أى أنها وسائل جديدة إلى نفس الغايات المطلوبة .

وربما أشير بسرعة إلى مثال قريب ، وهذا المثال هو حالة مصر التى لاتستطيع أن تفلت من قوة الضغط والجذب الآسيوية ، المتمثلة فى الأمن والدين واللغة وكلها فى الشرق أو منه ، ثم إنها لاتستطيع أن تفلت من الرباط الأفريقى بالدور الذى يلعبه النيل فى حياتها ، وهو واصل إليها من الجنوب ، ثم إن وجودها على شاطئ البحر الأبيض هاجس يشاغلها باستمرار من الشمال والغرب !

هذه نماذج ثلاثة :

أولهـــا : عن الولايات المتحدة ـ خاص بالتكوين الأول وامتداداته فى الحاضر.

وثانيها : عن ألمانيا ـ وهو خاص بالحركة مرحلة بعد مرحلة .

وثالثها : عن مصر ـ وهو خاص بالرواسى التى لايمكن التخلى عنها أو الإفلات منها .

ويبقى جوهر التطور باستمرار كامنا فى تلك العلاقة الحية والخصبة والمبدعة التى يجب أن تكون بين الثابت والمتغير .

٤ ـ إن بعض الاجتهادات تقول إن التكنولوجيا أسقطت الجغرافيا وسوف تسقطها أكثر فى القرن الواحد والعشرين لأنها ألغت المسافات . وبالتأكيد فإن المسافات تلاشت ، لكن إلغاء المسافات لايعنى بالضرورة إلغاء الحقائق ، فنحن قد نسافر من نيويورك إلى « تمبكتو » فى ساعات بدلا من أسابيع وشهور، لكننا حين نغادر نيويورك نتركها وهى نيويورك ، وحين نصل إلى «تمبكتو» نصلها وهى « تمبكتو » .

أى أن الحقائق لها قدرة على البقاء تتعدى قدرة التكنولوجيا على تغيير الوسائل . والوسائل بالتأكيد لها تأثير ، لكن من واجبنا أن ندرك أن الحقائق التاريخية إنسانية ، وبالتالى فإنها شأن كل ما هو إنسانى قابلة للتطور والارتقاء ، لكن تلك عملية بالغة التعقيد تتصل بأحوال المجتمعات وثقافاتها وقدراتها ونوعية الحياة السياسية فيها ، وغير ذلك كثير .

إن تلاشى المسافات جعل بعض الاجتهادات تتحدث بغير تحفظ عن كونية جديدة وعن قرية عالمية واحدة ، وإلى حد ما فإن ذلك صحيح لكن بعض التحفظ مطلوب . فالكرة الأرضية كوكب واحد ـ وليست كونا ـ وهو كوكب تسرى عليه نفس قوانين الطبيعة ، وهو كوكب حافل بأسباب الاختلاف والتباين والتناقض فى تضاريسه ومناخه وحتى ألوان ناسه ، ومن مزالق التعميم بلا تحفظ فى مقولات الكونية الجديدة والقرية العالمية الواحدة أن نتصور وهمًا أن الكل تساوى مع الكل ، وأن قياس سرعة الوسائل ينسحب على الحقائق بينما هما مسألتان مختلفتان .

عالمية الوسائل مشاع . ولكن عالمية الحقائق مخصصة .

بل لعلنا نقول إن عالمية الوسائل تحدث قربًا شديدًا ، وخصوصية الحقائق تحدث بعدًا شديدًا ، وذلك تناقض خطر .

٥ ـ تلحق بذلك مقولة تحتاج هى الأخرى إلى شيء من الحذر، وتلك هى مقولة سقوط الأيديولوجيا أمام علو التكنولوجيا ، وأن تلك أهم سمات القرن الواحد والعشرين . وينسى القائلون بذلك المعنى الأصيل للأيديولوجيا باعتبارها رؤية معرفية للكون وللدنيا وللمجتمع وللإنسان، تتبلور فى صياغات تعطى نفسها مواقف ووسائل تحسبها محققة لطموحاتها فى شتى مجالات الحياة .

وأغلب الظن أن القائلين بسقوط الأيديولوجيا يقصدون سقوط أيديولوجيا معينة أعطتها الماركسية وتبنتها الأحزاب الشيوعية وبخاصة فى الاتحاد السوفيتى السابق .

والأقرب إلى الواقع أن ما كان فى الاتحاد السوفيتى لم يكن مجرد أيديولوجيا Ideology ولكنه تحول من أيديولوجيا إلى « دوجما» Dogma .

والفارق بين الاثنين كبير ، فالأولى رؤية نظرية فكرية ، والثانية عقيدة أعطت لنفسها سلطان احتكار الحقيقة وسلطة قمع ما عداها .

وهذا فارق يستوجب ألا يكون الكلام جزافا عن سقوط الأيديولوجيات .

إن البشرية باستمرار فى حاجة إلى صياغة رؤاها ومواقفها . والشيوعية صياغة ضمن صياغات ، وكذلك الرأسمالية . والصياغات وسائل لغايات إنسانية أهمها غاية التقدم، وغاية الحرية ، وغاية العدل ، وغاية المساواة .

وقد يكون مفيدا لنا أن نتابع مناقشات أيديولوجية خصبة تجرى فى أوروبا مثلا ، وبينها ما يحاوله حزب العمال البريطانى ، وهو الآن يتقدم فى كل استطلاعات

الرأى العام على حزب المحافظين . إن الرئيس الجديد لهذا الحزب « تونى بلير » ـ وهو فى الغالب رئيس الحكومة المقبل فى بريطانيا ـ يتقدم إلى الناخبين بما يسميه « اشتراكية إنسانية » ، وقد اقترح على مؤتمر الحزب فى أول هذا الشهر (أكتوبر ١٩٩٤) إلغاء المادة الرابعة من دستوره ، وهى الخاصة بسيطرة الدولة على وسائل الإنتاج، لأن الزمن تجاوزها، لكنه لم يفعل ذلك ويسكت ، وإنما تقدم بعده ببديل مختلف لتحقيق غاية التقدم وغاية الحرية وغاية العدل وغاية المساواة ، يضع على مسئولية الدولة قضايا أساسية ، أهمها : كفالة حق العمل، وكفالة حق التعليم والتدريب وكفالة حق الصحة . (ولم توافق أغلبية فى مؤتمر الحزب على إسقاط المادة الرابعة ، إلا بعد أن يقوم «تونى بلير » بدراسة أوسع وأعمق للبديل الذى يقترحه ، ويزيده تفصيلا وجلاء) .

وهكذا فإن القرن الواحد والعشرين ليس عصر سقوط الأيديولوجيات ، وإنما قد يكون عصر تجديدها بصياغات أكثر قدرة ومرونة على تحقيق طموحات إنسانية عليا توجه إليها البشر من قبل تعداد القرون ، وسوف تظل وجهتهم إلى آخر الزمن .

□ □ □

نصل الآن إلى القرن الواحد والعشرين نفسه .

لنتفق فى البداية على أننا أمام متغيرات هائلة لا ترتبط بالانتقال من قرن إلى قرن، أو من ألفية ثانية إلى ألفية ثالثة . وربما أن مصادفة اللقاء بين التغيير والتوقيت هى التى أنشأت ذلك الاهتمام الزائد بالقرن وبالألفية .

والحقيقة أن ما نشهده أو ما نوشك أن نشهده ليس نهاية وبداية قرن أو ألفية قرون فحسب ، وإنما هو خاتمة وافتتاحية عصر فى مسيرة التاريخ .

وربما ترون أن عصور التطور التاريخى تصنعها حقائق التفوق والقوة ، وإذا كان ذلك ، فقد يجوز أن نقول إن العصر الذى استوفى مرحلته الآن هو ذلك العصر الذى بدأت مقدماته فى منتصف الألفية الثانية بتطويع وتطوير قوة البارود فى أوروبا ، مما أدى لخروجها الكبير إلى حركة الكشوف البحرية ، ثم حركة الاستعمار، ثم حركة التراكمات المالية التى مهدت للتنوير، ثم للنهضة ثم للثورة الصناعية التى أقامت أول نظام عالمى قادته بريطانيا بأساطيلها ، ثم ورثته الولايات المتحدة بسلاحها النووى . إن ذلك النظام العالمى الأول شهد وقائع كبيرة من تمكن الرأسمالية إلى تحدى الشيوعية ، وشهد ظواهر خطيرة من بروز النازية إلى جنوح العنصرية ، وشهد صراعات هائلة تمثلت فى ثلاثة حروب عالمية، اثنتان ساخنتان وواحدة باردة ، وربما أن هذه الحروب كثفت جهودا جبارة أدت إلى اختراق هائل وصل إلى فتح الآفاق أمام العصر الإلكترونى، وكان هذا الفتح ـ خصوصًا فى مجالات الانتاج والاستهلاك والمعلومات ـ هو الذى سارع بالانكسار العقائدى والإمبراطورى للاتحاد السوفيتى ، وكانت عملية الانكسار هذه هى التى أنهت آخر المواجهات العظمى فى العصر السابق ، وهى مواجهة الحرب الباردة .

وليس من المبالغة استعارة ظواهر الطبيعة بالتطبيق على السياسة من حيث القول بأن ذوبان ثلوج الحرب الباردة أحدث فيضانًا تحول إلى طوفان عندما انكسر آخر الحواجز والمتاريس والحصون التى كانت قائمة على خطوط المواجهات العقائدية والثقافية والعسكرية للنظام العالمى السابق .

إن يوم ٩ نوفمبر ١٩٨٩ ـ يوم سقوط حائط برلين ـ سوف يدخل التاريخ باعتباره اليوم الذى بدأ فيه تدفق واندفاع وهدير الطوفان الناشئ عن ذوبان جليد الحرب الباردة. وقد جرف هذا الطوفان أمامه حطامًا وركاماً كثيرًا من الماضى ، وأهم من ذلك أنه غطى الحاضر بسيوله الكثيفة ،وأخفى واقع ماجرى ويجرى تحته . . فلم يعد واضحا ما الذى انكسر ؟ وما الذى تهدم ؟ وما الذى تكوم أو

تكونّ ؟ وما الذى غرق فى طين القاع ؟ ثم ما الذى ظل عائما مع الموج حتى وإن لم يظهر على سطحه ؟

وكان هناك سؤالان هما فى الحقيقة سؤال واحد له وجهان :

أولهما : كيف النجاة من الطوفان ؟ أو بتصوير تاريخى : من الذى يقوم بدور سيدنا نوح يحمل الأجناس فى فلكه وينجو بها حتى ينحسر الماء ويغيض؟

وثانيهما : ماهو الشكل العام الذى سوف يظهر لتضاريس هذا الكوكب بعد أن ينحسر الماء ويغيض ؟ وكيف تسير الحياة على هذه التضاريس الجديدة؟ وفى أى اتجاه وعلى أى نحو ؟

وقد كان هناك خوف شديد وفوضى عارمة . ولعل هذه الفوضى العارمة بلغت مداها ـ فيما يتعلق بمنطقتنا ـ أثناء حربى الخليج الأولى والثانية ، وكان محتملا قبل أيام ـ ولايزال محتملاً ـ أن تكون هناك ثالثة !

وأثناء الخوف والفوضى ارتفعت أصوات ودارت مناقشات وظهرت اجتهادات كلها تحاول البحث عن « نوح » الجديد وفلكه المنجى من الطوفان ، وعن مشهد ما بعد الطوفان ، وما ينتظر الناجين بعده .

فى هذه الأجواء العاصفة ظهرت تفسيرات ومقولات ونظريات تبحث عن نوح وفلكه المنجى من الغرق !

١ ـ كانت هناك مقولة ونظرية أنه ميلاد نظام عالمى جديد سوف يكون هو الآمر الناهى فى القرن الواحد والعشرين ، وكانت تلك مقولة ونظرية الرئيس الأمريكى السابق «جورج بوش » ووزير خارجيته « جيمس بيكر » ومن حولهما من الخبراء والمستشارين .

لكن هذه المقولة والنظرية لم تثبتا طويلا ، فالفكرة ليست جديدة ، وتعبير «النظام العالمى الجديد » سبق استعماله عدة مرات . استعمله « ونستون تشرشل» فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وهو يطالب بسيادة «أنجلوساكسونية» تفرض مشيئة المنتصرين فى الحرب بحق النصر على بقية الدنيا .

ثم إن الرئيس الأمريكى « فرانكلين روزفلت » استعمل نفس التعبير سنة ١٩٤١ وهو يمهد لدخول الولايات المتحدة إلى ميادين الحرب العالمية الثانية ، ويبشر الدنيا بجنة بعد الحرب متحررة من الفقر والجهل والمرض والظلم السياسى والاجتماعى .

ثم عاد التعبير مرة أخرى يتردد على لسان « هنرى كيسنجر » وهو يهندس لسياسة الوفاق مع الاتحاد السوفيتى ، عندما كان مستشارًا للأمن القومى مع «ريتشارد نيكسون» ، ثم حينما أصبح وزيرًا لخارجيته .

ولم تكن المشكلة مشكلة جدة أو قدم التعبير فحسب ، وإنما كانت هناك الحقيقة الموضوعية فى أن النظم العالمية لا تقوم وتزول بمشيئة أحد ، ولا بمناسبة حادثة ، ولا بين ليلة وضحاها . فالنظام العالمى الأول الذى أقامته الثورة الصناعية واستقرت إدارته فى يد بريطانيا أكثر من قرن ، وانتقلت بعده إلى الولايات المتحدة لنصف قرن ، أخذ ضروراته فى النمو والنضج ، ثم إنه ترافق مع أسباب حقيقية فى وسائل الانتاج وفى أدوات استعمال القوة ، إلى آخره .

والشاهد أن مقولة ونظرية « النظام العالمى الجديد » تجمدتا حتى على ألسنة أصحابها . ويلفت النظر أن « جورج بوش » نفسه استعمل تعبير « النظام العالمى الجديد» ٢٧٤ مرة خلال خطاباته الرسمية وأحاديثه العامة فى الفترة ما بين أغسطس ١٩٩٠ «غزو العراق للكويت » ـ حتى مارس ١٩٩١ « إخراج

العراق من الكويت» ـ لكنه من مارس سنة ١٩٩١ وحتى انتهاء رئاسته فى يناير ١٩٩٢ لم يذكر هذا التعبير غير ثلاث مرات !

ولم تعش مقولة ونظرية « النظام العالمى الجديد » لكى تخطوا إلى القرن الواحد والعشرين .

٢ ـ ثم كان أن ظهرت مقولة ونظرية تلحقان بالمقولة والنظرية الأوليين وتحاولان أن تسنداها وتسدا ثغراتهما ، ومؤداهما « إنه نظام عالمى جديد لكن له مديرًا واحدًا هو الولايات المتحدة الأمريكية » . ولم تلبث هذه المقولة والنظرية أن تهاوتا بدورهما ، فليس هناك نظام عالمى بالمعنى الذى يستحق هذا الوصف يقوم على دولة واحدة فى عصر توزعت فيه مراكز القوة التكنولوجية والاقتصادية ومن ثم العسكرية .

وإذا كانت بريطانيا قد تمكنت من إدارة النظام العالمى السابق للمدة الأكبر من عمره « قرابة قرن » فقد كان ذلك ممكنا بفضل التفوق البحرى للأسطول البريطانى وظروف التجارة الدولية التى أعطت للجنيه الاسترلينى سيادة مالية شبه كاملة ، كما أن وسائل العصر ، وأهمها وسائل المواصلات والاتصالات كانت محدودة ، ومع ذلك فإن الهيمنة البريطانية تعرضت لتحديات من فرنسا وألمانيا وروسيا واليابان ، وقد أدت هذه التحديات إلى حربين عالميتين . والآن فإن الحروب العالمية مستحيلة بسبب طبائع الأسلحة النووية .

يتبقى أن الولايات المتحدة دولة لها مصالح ، والعالم الآن أوسع من مصالحها ، ولو أدارت شئونه لكان محتما عليها أن تهمل أجزاء منه ، وأن تتحيز فى أجزاء أخرى بما يثير ضدها ما لا تستطيع ـ وقد لا ترغب ـ فى السيطرة عليه .

والحقيقة أن القادة الأمريكية ، أو بتعبير آخر السلام الأمريكى Pax Americana، تبدت حدوده فى حرب الخليج الثانية .

ولعلنا نتذكر أيضا أن هذه الحرب لم تكن ممكنة، لولا أنها كانت حربا شنتها الصواريخ من حاملات الطائرات الواقفة من بعيد لأن الشعب الأمريكى ليس مستعدا لخسائر فى الأرواح . ثم إنه أيضا ليس مستعدًا لخسائر فى الأموال ، وقد كانت حرب الخليج الثانية فى جزء منها عملية رابحة . تكلفت ٣٦ بليون دولار ، وحصلت الولايات المتحدة فيها على ٦٤ بليون دولار ، بهامش ربح يقارب الثلاثين بليون دولار .

ثم انتهت حكاية هذا السلام الأمريكى فى الصومال حين أقبلت الولايات المتحدة على مادعته مهمة إنقاذ إنسانية تحت عنوان إعادة الأمل Restore Hope ، ثم لم تمض غير شهور حتى انسحبت كما دخلت فى ساتر الظلام تاركة الصومال وأهله بعد كمين قتل فيه ثمانية عشر جنديا أمريكيا ، وهاج الرأى العام الأمريكى وماج .

وحين لحقت مشكلة البوسنة بمشكلة الصومال، تبين أن السلام الأمريكى محدود مهما كان مدى صواريخه غير محدود ، وبالتالى فإن القرن الواحد والعشرين يصعب أن يكون له ضابط واحد حتى وإن كان أمريكيا ،وحتى إذا كان مركز قيادته هو البيت الأبيض فى واشنطن !

ولقد كانت الخاتمة التى تستحق الاعتبار والعبرة هى ماحدث أخيرًا حين أقدم العراق على حشد جزء من قواته على حدود الكويت .

إن الولايات المتحدة الأمريكية لم تبدأ فى حشدها المضاد إلا بعد الاتفاق على تسديد حساب التكاليف .

خمسمائة مليون دولار فى الأيام الخمسة الأولى لحشد الأساطيل والطائرات والجنود ، ثم خمسون مليون دولار كل يوم بعد ذلك ، مع إضافة عشرين مليونا أخرى يوميا لنفقات القوات التى وضعت فى حالة تأهب، وإن لم تنتقل بعد

إلى منطقة الحشـد فى الخليج . والمطالب بالدفع بالطبع هما السعودية والكويت أولا .

ومن الغريب أن بعض التقديرات الموثوقة تشير إلى أن القوات الأمريكية التى نزلت فى الكويت لم تزد فى ذروة الحشد عن مجموعة لواء ، أى فى حدود ثلاثة آلاف جندى ، بينما كانت البيانات الرسمية الأمريكية تعلن أن العدد فى الكويت ثلاثون ألفا . ويظهر أن هذه البيانات أضافت إلى أرقامها أعداد القوات الموجودة على السفن العاملة من الأصل فى الخليج ، إلى جانب قوات موجودة فى قواعد مختلفة من دوله .

ولا يعرف التاريخ من قبل نظامًا لادارة العالم باليومية !

ولا يعرف التاريخ من قبل أيضًا نظامًا عالميا يمارس مهامه على طريقة مقاول توريد الأنفار ، ويغالط فى عددهم أيضا !

فوق ذلك فإن الحشد الأمريكى على وشك أن يتفرق دون إطلاق نار ، لأن فرنسا كان لها رأى مختلف ، كما أن روسيا انفردت بموقف يجنح إلى الاستقلال ، ثم إن الصين أبدت امتعاضها من كل التصرفات والآراء والمواقف .

ولم يستطع المدير الأمريكى أن يدير الكرة الأرضية وأن ينفرد بها وحده !

٣ ـ وفى بعض الأوقات راجت مقولة ونظريةثالثة مؤداهما « إن النظام العالمى الجديد هو فى الواقع نظام الأمم المتحدة متطورًا ، يملك إرادة مستقلة لها القدرة على فرض مايسمى بالشرعية الدولية » ، وكان مثل ذلك ضرباً من خداع النفس ، فالأمم المتحدة شأنها شأن أى تنظيم دولى لاقيمة له إلا بمقدار ما يتنازل له الأعضاء الكبار فيه عن جزء من سيادتهم، وعن جزء من قوتهم لتكون من ذلك مشيئة لها قدرة على فرض الحقائق متسقة مع مقتضيات

العدل الذى يجب أن يكون أساسا للشرعية الدولية .

ولم يكن ذلك قائما ولا كان ممكنا ، فالدول مصالح وليست مؤسسات خيرية ، أو قانونية ، ثم إن المصالح متضاربة وكذلك مطالبها ، وهذا يحول دون سلطة إرادة واحدة ، بل هو موجب للشلل أكثر مما هو مؤد للفعل . ولقد امتد الشلل حتى إلى خزينة الأمم المتحدة ، ولم يعد هناك شاغل لأمينها العام غير أن يدبر مرتبات موظفيها من شهر إلى شهر . ويصعب أن يكون ذلك حال مؤسسة يرجى لها أن تكون حاكماً ، أو حكما فى شئون العالم !

٤ ـ بالتوازى مع ذلك شاعت وذاعت مقولات ونظريات جاءت من عوالم الفكر قبل عوالم السياسة . فقد نادى أستاذ علوم سياسية مثل « فوكوياما» بأنها «نهاية التاريخ» لأن البشرية توصلت إلى مثالها النهائى وهو الديمقراطية الليبرالية .

ولم تكن مقولة ونظرية « نهاية التاريخ » بدورهما جديدتين ، فمن قبل همس بهما «هيجل» متصورا أن الثورة الفرنسية أعطت للبشر مثالهم المرتجى ، ثم صاح بهما «ماركس» و«لينين » من بعده متصورين أن ديكتاتورية البروليتاريا هى تلك النهاية للتاريخ من حيث إنها خاتمة صراع الطبقات وصانعة الفردوس على الأرض لكل البشر.

وانتهى « فوكوياما » نفسه ـ وقد رأى ماجرى على اتساع قارات الدنيا تقريبا ـ إلى أن التاريخ مازال يجرى ، وأن نهايته أبعد من القرن الواحد والعشرين. . . هذا إذا كانت للتاريخ من الأساس نهاية فى أوضاع تشتد فيها تناقضات ولا تقل !

٥ ـ وأخيرًا خرج أستاذ كبير مثل « هنتنجتون » بمقولة ونظرية أنه « صراع الحضارات» وأنه المؤثر الأكبر على القرن الواحد والعشرين .

ولم يقف كثيرون طويلاً أمام هذه المقولة والنظرية . فالحضارات الكبرى ليست وليدة اليوم ، وإذا كان الجديد هو صراعها، فلماذا لم يكن ذلك فى القديم أيضا، وإلا فكيف يمكن تفسير الحروب الطاحنة التى دارت بين الدول الأوروبية ،وكلها فى نطاق الحضارة المسيحية الغربية ؟ وكيف يمكن تفسير الحروب الطاحنة التى دارت بين الصين واليابان وكلتاهما فى نطاق الحضارة البوذية ؟ بل ،وكيف يمكن تفسير الحروب الأهلية وهى تجرى فى كل مرة داخل وطن واحد فضلاً عن حضارة واحدة ؟!

وإذا كان ذلك كله لايصلح فى عملية البحث عن « نوح » جديد يحمل الإنسانية فى فلكه أثناء الطوفان ، ويصل بها إلى بر أمان بعده ـ إذن فأين السبيل إلى القرن الواحد والعشرين ؟

□ □ □

لابد أن نعترف أن أحدًا لايملك جواباً ، لكن البحث عن جواب يحق أن يشغل كل الناس .

وإذا حاولنا أن ننضم إليهم ، فقد يكون مفيدًا أن نبدأ بسؤال مبدئى جوهرى :

ما الذى يؤثر سياسيًا على أى مرحلة ؟ وعلى أى عصر ؟ وعلى أى قرن ؟ وما الذى يشكل ملامح أى زمن قادم ويحدد توجهاته ؟

والرد على هذا السؤال ـ ولا أظننا سوف نختلف عليه كثيرا ـ هو :

إن أى عصر سياسى تؤثر فيه بالدرجة الأولى ثلاثة عناصر :

١ ـ القوى المتنفذة فيه ؟

٢ ـ وبؤر التوتر والصراع الظاهرة أو الكامنة داخله ؟

٣ ـ والأفكار الواصلة إليه ؟

إن التوقف أمام هذا السؤال والرد عليه ضروريان ومهمان ، وقد يساعدنا أنه بعد خمس سنوات من يوم ٩ نوفمبر ١٩٨٩ وإلى الآن ، فإن طوفان الثلوج الذائبة قلت رهبته ـ ربما من التعود عليه ـ كما نزل منسوبه ـ ربما بنوع من التسرب أو بخر الشمس ـ والنتيجة أنه أصبح فى مقدورنا أن نلمح بعض القمم والنتوءات والصخور العالية ، وإن كنا لانرى بعد ما تحتها ، والأرجح أنها تخفى مشاهد بعضها مزعج وبعضها غريب ، بل وبعضها مأساوى !

فـاذا عدنا إلى سؤالنا المبدئى والجـوهرى وتناولنـا العنصر الأول فيه وهـو عن : القوى المتنفذة فى العصر ـ فإننا سوف نلمح على القمم والنتوءات والصخور التى تتبدى من تحت الطوفان شيئا قريبا من المعالم التالية ، ولنلاحظ دواما أننا نتحدث عن بدايات القرن الواحد والعشرين ، لأننا واقعيًا لانملك الفرصة لأكثر :

□□□ أولا: سوف نلمح الولايات المتحدة الأمريكية ، وهى نفس القوة التى سادت فى القرن العشرين ووصلت فى نهايته إلى أعلى القمم ، وبالتالى فهى تظهر أمامنا الأعلى على سطح الطوفان والأقدر على التقاط الأنفاس والوصول إلى بر أمان .

ومع ذلك فالولايات المتحدة الأمريكية تبدو مرتبكة ، مقيدة فى مساحة حركتها ، عصبية فى تصرفاتها حتى الآن كأنها غير واثقة من الأرضية التى تقف عليها برغم طول القامة وعلو الهامة . ونستطيع أن نرصد بعض الأسباب ونطوف حولها بالنظر .

١ ـ نستطيع أن نقول إن الولايات المتحدة الأمريكية مستنزفة من مسئوليات الفترة التى قادت فيها النظام العالمى السابق ، فقد كانت الطرف الأكبر فى حربين عالميتين ساخنتين ، ثم إنها كانت الطرف الأوحد تقريبًا فى الحرب العالمية الباردة . وليس هناك ماهو أكثر تكلفة من الحروب ساخنة أو باردة . وفى لقاء مع الرئيس « شارل ديجول » جرى قبل ربع قرن تقريبًا ، أتذكره وهو يقول : «إن الولايات المتحدة سوف تكسب الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتى، لكنها سوف تخسر السلام بعدها لأنها سوف تخرج من هذه الحرب منهكة » . وعلى نحو ما فإن نبوءة ذلك السياسى البعيد النظر تبدو الآن قراءة للتاريخ وليس قراءة للفنجان !

٢ ـ والحاصل أن الولايات المتحدة الأمريكية هى الآن أكبر مدين فى العالم ، فحجم دينها الداخلى والخارجى يتصاعد بسرعة خرافية ـ من ٨٥٠ بليون دولار فى أوائل الثمانينات إلى ٤ تريليون دولار فى أوائل التسعينات ـ والتقديرات الموثوقة لدى صندوق النقد الدولى أن حجم الدين الأمريكى واصل سنة ٢٠١٠ إلى درجة أن فوائده وحدها سوف تزيد عن حجم الناتج الاجمالى الأمريكى فى تلك السنة .

٣ ـ وبسبب أولويات أملتها ضرورات الحروب ساخنة وباردة فإن الانتاج العسكرى أصبح يمثل مساحة تزيد عما هو ضرورى على خريطة الإنتاج الأمريكى فى إجماله ، ولقد حدث توسع الإنتاج العسكرى على حساب احتياجات أخرى سواء فى مجالات البنية التحتية أو الإحلال والتجديد فى وسائل الإنتاج المدنى ، أو غير ذلك فى مجال الخدمات وبينها التعليم والصحة .

والمشكلة فى الحجم المتضخم للإنتاج العسكرى أنه مع انتهاء عصر

الحروب العظمى فإن هذا الكم الهائل من السلاح يصبح بغير استخدام، كما أن فائضه الجاهز للتصدير يصبح عبئا على الأسواق فى مناخ دولى مختلف ، ثم أن المشترين التقليديين ممن تعودوا - أو جرى تعويدهم - على أن يأخذوا من الولايات المتحدة كل ماتعرضه - ونحن العرب أولهم - لم يعد فى أيديهم كثير يدفعونه لشراء السلاح الأمريكى .

والمشكلة فى الخدمات ، ولابد أن نلاحظ هنا أننا نتكلم ونقارن بمقاييس القمة الدولية وليس بسفحها أو قاعها، إن سباق القرن الواحد والعشرين سوف تظهر أوضح مؤشراته فى ميادين التراضى والتوازن الاجتماعى ، وبالتحديد فى إمكانيات فرص العمل والتعليم والصحة .

والماثل أمامنا أن مستوى التعليم الأمريكى نزل من المركز العالمى الأول إلى المركز العالمى السابع .

والجارى أمامنا أن « هيلارى كلينتون » التى كانت تطمح إلى دخول التاريخ عن طريق مشروع للتأمين الصحى ، وجدت نفسها مضطرة إلى القعود عنه لأن تكلفته أكثر مما تطيق الخزانة الأمريكية .

٤ - وهناك معضلة لا تظهر للكثيرين بجلاء ، هى أن جزءًا كبيرًا من حيوية المجتمع الأمريكى كانت راجعة إلى قدرة هذا المجتمع على استيعاب وهضم عناصر بشرية من أصول مختلفة، وكانت هذه العملية المجددة للشباب والمنشطة تجعل من الولايات المتحدة Melting Pot - أى وعاء صهر ومزج من طراز مثير وفريد - لكن هذه العملية تكاد تتوقف لاعتبارات كثيرة تتعلق بمشاكل التمييز العنصرى، وموجات الهجرة الجديدة المشروعة وغير المشروعة، مع تباطؤ فى التنمية وزيادة فى المطالب المبررة، وغير المبررة ، ثم أضيفت إلى ذلك أخيرًا دعاوى الهوية

الخاص . فإذا الولايات المتحدة تتحول تدريجيًا إلى مجموعات كتل إنسانية كأنها الجزر المعزولة . . كتل زنجية ، وكتل هندية ، وكتل لاتينية ، وكتل آسيوية ، وكتل أوروبية ، واستتبع ذلك إحياء ثقافات ولغات وممارسات جعلت ذلك البلد القارة مهددًا بانقسامات يستفحل خطرها ، الأمر الذى دعا مؤرخًا ممتازًا مثل « آرثر شليزنجر » إلى اصدار كتابه «الولايات غير المتحدة الأمريكية Disunited States of America » .

ومن المفارقات أن الصفوة الحاكمة فى أقوى بلد فى العالم الآن مشغولة ـ إلى جانب هموم أخرى ـ بأبحاث أثبتت أن متوسط الذكاء العام للفرد الأمريكى قد انخفض بمعدل ٨٪ عما كان عليه منذ عشرين سنة طبقا لقياسات علمية محددة !

٥ ـ إن مجمل الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية فى الولايات المتحدة أدى إلى نتائج يصعب غض النظر عنها ، وفى مقدمتها أن متوسط دخل الفرد تواضع فى العشرين سنة الأخيرة من ٢٨ ألف دولار للفرد فى السنة إلى ٢١ ألفًا . وفى نفس الوقت فإن تركيز الفقر فى مقابل تركيز الغنى أصبح حادًا ، ومن الصعب أن يتصور بعضنا أن هناك ٣٠ مليون أمريكى يعيشون على حد الفقر وتحته ، كما أن ٢١ مليونًا من الأمريكيين أميون .

٦ ـ إن الثورة الإلكترونية مدت أثرها إلى العملية السياسية وإلى مستوى صنع القرار، ومن ذلك أن دخول البيت الأبيض أصبح أقرب إلى مؤثرات الصورة وإيحاءاتها منه إلى موجبات الاقتناع والاختيار ، ثم ترتب على ذلك أن البيت الأبيض وساكنيه أصبحوا ينامون على قنوات التلفزيون ويصحون عليها ، ثم إن استطلاعات الرأى العام أصبحت

تقود القرار السياسى وأحيانا تفرضه ، وتنامى نتيجة ذلك نفوذ جماعات الضغط ، ولسنا فى حاجة إلى التذكرة بتأثير جماعات الضغط الصهيونى على القرار الأمريكى فى الشرق الأوسط . ولم يعد الضغط حكرًا على الجماعات الصهيونية . وقد رأينا أخيرا أزمة أوشكت أن تؤدى إلى الحرب مع كوبا ، وقيل فى تبريرها إنه تأثير جماعات الضغط فى فلوريدا وكلهم على صلة بالمعارضين لفيدل كاسترو . وأخيرا لحق بذلك تدخل أمريكى عسكرى وبالفعل ـ وإن يكن تم بغير دم ـ فى هايتى وقيل فى تبريره إنه تأثير جماعات الضغط السوداء !

ولعله لم يعد خافياً أن صور القناة الإخبارية .C.N.N أصبحت أكثر نفوذا على قرار الرئيس الأمريكى من مذكرات وزراء خارجيته ومستشاريه !

ونتيجة لذلك فإن القرار الأمريكى الخارجى أصبح مرهونًا بمؤثرات داخلية موجهة أو عشوائية ، الأمر الذى دعا « دانتى كابور » ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة فى هايتى أن يقدم استقالته قائلاً فى خطاب الاستقالة وقد اطلعت على صورة منه : « لقد كنا توصلنا لحل للمشكلة فى هايتى أكثر كفاءة واتساقا مع المطلب الديمقراطى من كل ماوصل إليه ممثلو الرئيس كلينتون الذين جاءوا إلى « بورت أو برنس » فى أجواء التهديد بالحرب . ومن سوء الحظ أن المطالب الانتخابية للرئيس غلبت على مطالب الديمقراطية فى هايتى ، وذلك وضع سيئ إلى درجة الإهانة للأمم المتحدة ، الأمر الذى يدعونى إلى تقديم استقالتى » .

ولم يكن ذلك الذى توصل إليه المندوب الدولى فى هايتى اكتشافًا ، فقد تسربت إلى جريدة « نيويورك تيمس » فقرات من توصية كتبها « ليون بانيتا» رئيس أركان حرب البيت الأبيض إلى الرئيس ، جاء فيها بالنص :

« إن الرأى العام يتصورك « طريا» ، ولابد أن تمحو هذا الانطباع من ذهنه ، وأزمة هايتى تعطيك الفرصة لذلك قبل انتخابات التجديد النصفى للكونجرس (نوفمبر ١٩٩٤) بحيث تساعد حزبك على النجاح فيها ، وعليك أن تنتهز الفرصة ، وأن تتصرف بحزم، وأن تتصرف بقوة ، وأن لاتتردد فى استعمال السلاح إذا أدى الأمر لكى تتغير صورتك أمام الرأى العام ، ويراك قويا مبادرًا وقادرًا على الحسم » .

وقد تحقق لكلينتون شىء من هذا بالفعل ، فشعبيته فى استطلاعات الرأى العام ـ قبل انتخابات نوفمبر ـ زادت بنحو ستة فى المائة نتيجة لتدخله فى هايتى ولاندفاعه إلى الخليج بعد الأزمة الأخيرة ، ولعلها اليوم بزياراته للمنطقة تضيف واحدا أو اثنين فى المائة إلى شعبيته .

إن هذه البواعث الغريبة النافذة إلى صلب عملية اتخاذ القرار السياسى استدعت معها زوائد إضافية ، منها أن القرار لايستطيع أن يعرض نفسه على الناس ببواعثه الأصلية ، وإنما أصبح ضروريًا أن تسبقه وتحيط به وتلحقه عمليات تهيئة وتعبئة نفسية أحدثت تشويها مزعجا فى أخلاقيات السياسة وأساليبها ، وأخطر من ذلك فى نظرة الرأى العام الأمريكى إلى العالم من حول .

٧ ـ ولقد زاد من تخبط القرار السياسى الأمريكى أنه فقد بؤرة التركيز التى أعطته هدفا محددا هو « إمبراطورية الشر » (على حد تعبير الرئيس «ريجان») فى الاتحاد السوفيتى . وبالنسبة للقوى الدولية الكبرى فإن اختفاء العدو يحدث من خلل التوازن أحيانا أكثر مما يحدثه تخلى الحليف، وهناك فارق بين أن تبنى دولة ما سياستها على مواجهة عقائدية مقدسة وبين ألا يكون لدى هذه الدولة من ذرائع للحرب غير

المخدرات وحقوق الإنسان والديكتاتورية ، وتنتفى هذه الـذرائع إذا تذكرنا أن وكالة المخـابرات المـركزية الأمريكية .C.I.A مولت عملياتها لسـنوات طويلة من التغاضى ـ وأحيانا الاشتراك ـ فى تجارة المخدرات ، وأن الولايات المتحدة ليست بعيدة عن انتهاك حقوق الإنسان فى مواقع كثيرة من العالم ، وأن بعض أقرب الأصدقاء من واشنطن ليسوا من أنصـار الديمقراطية وأحبابها ، بـل إن بعضهم ـ « يلتسين » مثلا ـ لم يتورع عن ضرب برلمانه بمدافع الدبابات ، بينما الولايات المتحدة تصفق تشجيعًا وإعجابًا !

وقضايا القيم لا تحارب بمعايير مزدوجة وإلا ضاعت المعركة من أول لحظة بضياع المصداقية .

ومن شـأن هـذه العناصر كلهـا أن الولايات المتحدة ـ وعند جسور العبور إلى القـرن الواحـد والعشرين ـ تدخـل إلى هذا القرن عصبية وغير واثقة من نفسـها رغم أنها مازالت الأولى ، وهذه حقيقة لايصح أن ننساها للحظة واحدة .

□□□ **ثانيا** : ومن بعيد ، وعلى صخرة خطرة مما يتبدى على سطح الطوفان ، نستطيع أن نلمح روسيا ، وهى الدولة الضخمة الباقية مما كان الاتحاد السوفيتى .

نحن أمام دولة انزلقت من فوق القمة ، وهى تحاول استعادة توازنها والعودة إلى دور تعتبر نفسها فيه وريثًا للاتحاد السوفيتى . وهى تملك الموارد الاقتصادية والبشرية التى تعزز دعواها على الأقل من ناحية نظرية . والنقطة الحرجة فى دعواها ـ إلى جانب وجود أساس حقيقى لهذه الدعوى ـ أن روسيا مازلت تملك أكبر ترسانة نووية وأكبر قوة إطلاق للصواريخ ،

فنحن نتحدث عن ٤٩٠٠ رأس نووى . والتقدم الروسى الهائل فى مجال الفضاء يقطع بوجود مقدرة تكنولوجية عالية ، وإن كانت طبائع النظام السوفيتى لم تسمح لهذه التكنولوجيا العسكرية أن تفيض على الجوانب المدنية للإنتاج .

ومن دواعى القلق أن العالم لم يستطع أن يتوصل إلى أسلوب ناضج يتعامل بهمع روسيا ، فهناك مزيج من الرغبة فى الإضعاف وفى نفس الوقت الإبقاء على نوع من التماسك ولو عند الحد الأدنى ، وكان العالم يركز اهتمامه على «جورباتشوف» ويسنده ضد منافسه « يلتسين » . وحينما سقط «جورباتشوف » تحول الاهتمام إلى « يلتسين » لحمايته ربما ضد نفسه . . . أو ربما ضد البقايا الحزبية مما كان . . . أو ربما ضد قوات مسلحة كان واجبها أن تحمى وطنها ، فإذا هى شاهد على تفكيكه !

ومهما يكن فهناك الآن جهود تبذل ، وهناك مخاطر تهدد ، ولكن روسيا بمواردها وطاقاتها وما يجرى فيها سوف تظل ـ على نحو أو آخر ـ عاملا ضاغطا على بدايات القرن الواحد والعشرين ، وبالذات إذا استطاعت أن تتوصل إلى ترتيبات صلبة مع مايسمى بمجموعة الدول المستقلة والتى كانت فى يوم من الأيام داخلة فى إطار الاتحاد السوفيتى .

□□□ **ثالثا** : على إحدى القمم البارزة فوق سطح الطوفان نستطيع أن نلمح اليابان، وهناك من يتصورون أن القرن القادم يابانى . واليابان معجزة بكل المقاييس ، وسوف يظهر دورها فى القرن القادم بلا جدال ، لكنه من الصعب الآن رؤية القرن الواحد والعشرين على أنه قرن يابانى لعدة أسباب : فاليابان على طرف الأرض بعيدًا عن القلب الذى كرسته قرون طويلة من التاريخ الإنسانى ، ثم إن مواردها محدودة وإن كانت مواهبها

مفتوحة ، يضاف إلى ذلك أن قوتها العسكرية مقيدة . ثم إن اللغة الإنجليزية أصبحت لغة العالم ، أو ما يمكن تسميته Lingua Franca ، وبالتالى فإن الإعلام باللغة الانجليزية ملك لنفسه نفوذًا كاسحًا إلى درجة أن سبع أو ثمانى قنوات وصحف تقدر الآن على تحديد جدول أولويات الاهتمامات العالمية بغير منازع أو شريك تقريبا . والثقافة لها خصوصية داخلية لا تفضى ولاتفصح عن نفسها ببساطة للآخرين . والموقع ، وحجم الموارد والقدرات ، ثم اللغة والثقافة ، بما فى ذلك نفوذ الإعلام ـ عناصر أساسية فى ظهور الأدوار العالمية وصعودها .

وكانت اليابان حتى عهد قريب عملاقا صناعيا يحاول تجنب السياسة . لكن ذلك كما أثبتت الظروف مستحيل ـ فكل قوة اقتصادية لابد لها من تعبير سياسى عن نفسها ، ولابد لها من استراتيجية شاملة ـ وعسكرية أيضا ـ تناسب حجم مصالحها فى العالم . وهذه واحدة من أهم القضايا التى تلقى بظلها على بدايات القرن الواحد والعشرين .

□□□ **رابعا** : وعلى هضبة بركانية التكوين تظهر على سطح الطوفان ، نستطيع أن نلمح الصين ، وهى واصلة فى سنة ٢٠١٠ إلى تعداد سكان حجمه مابين ١٥٠٠ إلى ١٦٠٠ مليون نسمة ، وفى تلك السنة فإن حجم إنتاجها القومى سوف يصل ـ بمعدل التنمية السنوى الحالى وهو ١٢٪ ـ إلى الحد الذى يتساوى فيه مع حجم الناتج القومى الأمريكى . ويضاعف من تأثير الصين فى القرن القادم أو بداياته على الأقل مايطلق عليه « مجموعة النمور الآسيوية » وهى تتحرك فى نطاق جاذبية الكتلة الإنسانية الصينية المهولة .

على أن أمام الصين عقبات أهمها تحقيق انتقال سلمى من الفقر إلى الوفرة ، وضمان توازن بين حجم السكان وحجم الغذاء الضرورى لهم ، إلى جانب

مشاكل التحول من المركزية إلى التعددية مع اتساع الأقاليم وعمق المواريث .

ومهما يكن وبصرف النظر عن كل العقبات فإن الصين بإمكانياتها ومصاعبها سوف تكون فاعلا رئيسيا فى تشكيل ماهو آت .

□□□ **خامسا** : وعلى سلسلة جبال تظهر رؤوسها فوق سطح الطوفان نستطيع أن نرى أوروبا الغربية ، وألمانيا الموحدة على أعلى الرؤوس ، ولقد حققت وحدتها بعد الطوفان ونتيجة له ، وهى مازالت تستوعب نتائج وتبعات وحدتها ، ولاتزال حائرة فى اتجاه حركتها بعد الوحدة ، فهناك من يدعو فيها إلى علاقة خاصة مع الولايات المتحدة، وهناك من يدعو إلى علاقة خاصة مع فرنسا ، وهناك ـ وهذه مسألة حساسة ـ من يدعو إلى علاقة خاصة مع روسيا . وإذا تذكرنا أن التاريخ الألمانى كان باستمرار زمانًا يبحث عن مكان ، وإذا تذكرنا أن ألمانيا تعتبر روسيا عمقها إلى الباسيفيك بمقدار ما إن روسيا تعتبر ألمانيا شاطئها إلى الأطلنطى ـ إذن فإن الاختيار الاستراتيجى الألمانى سوف يلعب ـ إلى جانب القوة الذاتية والكفاءة الممتازة ـ دورا بارزًا فى القرن القادم .

□□□ **سادسا** : هناك قوى أخرى فى آسيا مثل الهند ، وقوى أخرى فى أمريكا اللاتينية مثل الأرجنتين ـ لكن هذه القوى جميعا تتأرجح على الموج ، ولايبـدو واضحا إذا كانت ستـخرج منه إلى القرن الجديد أو أنها ستغوص فى القاع .

□□□ **سابعا** : وليس آخرا ـ أننا نستطيع أن نلمح فوق سطح الطوفان عملية سباحة نشيطة وسريعة تقوم بها ألف شركة عالمية تملك أو تسيطر على نصف الإنتاج العالمى بالضبط وإذا تصور أحد أن هذه القوة الجبارة تحصر همها فى شئون الاقتصاد بعيدًا عن شئون السياسة والتوجيه ، فإن مثل هذا التصور نوع من طيبة القلب الزائدة تنتظر من أسراب المرجان أن تسبح بأمان وسط قوافل الحيتان !

هكذا فإننا أمام ناس يقدرون ، وناس يحاولون ، وناس لايبدو أنهم يقدرون أو يحاولون ، وبعضهم يأمل أن ينقذه أحد لأنه يستطيع أن يخدم ويفيد ، ثم إن هناك ناسا سوف يغرقون لأنهم لايقدرون ولا يحاولون ، ولا أحد ينتظر منهم خدمة أو فائدة ، وأظن أن ذلك حال كثيرين فى أفريقيا على وجه التحديد ، فمساحات واسعة فى هذه القارة البائسة سوف تظل فى القرن القادم مختنقة أو غريقة وسط ركام مابعد الطوفان .

□ □ □

نتنقل الآن إلى العنصر الثانى من العناصر المؤثرة على القرن الواحد والعشرين ، وهو ضغوط بؤر التوتر والصراع الظاهرة أو الكامنة فى المستقبل القريب ، وأذكر منها بسرعة :

١ ـ أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تقبل ببساطة أن تصل إلى سنة ٢٠١٠ لتجد أن فوائد ديونها تستغرق كامل دخلها القومى ، وإذن فلابد لها أن تحاول بكل وسيلة أن لاتصل إلى هذا المأزق مهما كان الثمن .

من هنا بالضبط فإن الولايات المتحدة أنهت حربا عقائدية باردة مع الاتحاد السوفيتى لكى تلتفت إلى حرب اقتصادية وتجارية مع اليابان ، وإلى حد ما مع أوروبا الغربية وألمانيا فى طليعتها .

وربما أن السياسة الأمريكية لهذا السبب بالضبط تحاول تعطيل التقدم على جبهة الغرب وجبهة الشرق ، فهى فى أوروبا تحاول إغراء غرب أوروبا بأن يدخل فى ضبط مشاكل شرق أوروبا ،ويتحمل تبعاته وتكاليفه ، وغرب أوروبا لايريد أن يتورط ، وهذا مدلول مايجرى فعلا فى يوجوسلافيا السابقة .

وربما لهذا السبب بالضبط أن الولايات المتحدة على جبهة الشرق تحاول أن تعوق إمكانية أى لقاء استراتيجى بين اليابان والصين ، وهذه بالفعل هى الاستراتيجية الأمريكية فى الشرق ، وهى بالطبع تتوقع أن كلاً من العملاق اليابانى والعملاق الصينى مضطر إلى أن يزاحم الآخر والآخرين بحثا عن حيز يتسع له فى مكانه وفى العالم .

وربما لهذا السبب أيضا أن الولايات المتحدة تمارس ضغوطاً عنيفة وقاسية على الدول العربية لكى تقبل بسلام أمر واقع مع إسرائيل ، تظن أنه يكفل أمن الشرق الأوسط ويؤكد سيطرة أمريكية لاتنازع على مواقعه وموارده .

ومن ذلك كله فإن الدور الأمريكى فى مطالع القرن الواحد والعشرين سوف يلجأ إلى ألوان من العنف قد تكون مستحدثة فى ممارساتها ، ظاهرة وخفية . وأحيانا مايكون التشبث بالبقاء على القمة أشد حاجة للعنف من الصعود إليها .

٢ ـ إن روسيا فى نفس الوقت ـ ورغم متاعبها الداخلية سياسية واجتماعية ـ تريد استعادة توازنها بسرعة وإثبات حقها كدولة عظمى ، والخطورة تكمن فى أن الترسانة النووية الروسية الهائلة هى مبرر دعواها الراهنة كقوة عظمى حتى

تتمكن من تحريك بقية الإمكانيات التى تمكن لدورها فى القرن المقبل . ثم إن روسيا فضلا عن تلهفها على استعادة توازنها ، تحاول أيضا استعادة دورها وهيمنتها على النطاق الإمبراطورى الذى كان يحيط بها قبل انفراط الدولة السوفيتية .

وعندما تكون وسيلة أى دولة إلى استعادة توازنها ودورها هى الاعتماد على ترسانة نووية ، لها عمر افتراضى قبل أن تتقادم ، ثم إن تجديدها والحفاظ على تفوقها يتطلبان موارد غير متاحة فى الحال، إذن فنحن أمام وضع ساخن يستطيع أن يصبح كتلة حرجة فى أى وقت .

٣ ـ إن قلب العالم القديم كله وبحاره الملونة الأبيض والأسود والأحمر ، حتى المحيط الهندى ـ أعنى بذلك البلقان وجنوب الاتحاد السوفيتى السابق والشرق الأوسط ، وكلها مناطق تتصل ببعضها ـ أصبحت مناطق فوران إلى درجة الغليان . ويكفى أن نطل بنظرة على خريطة ـ والخريطة خير دليل إلى السياسة ـ لكى ندرك خطورة مايجرى فى يوجوسلافيا السابقة وحولها ،وفى الجنوب المسلم للاتحاد السوفيتى ،وإلى أفغانستان ، وباكستان وإيران ، والخليج ، والهلال الخصيب (العراق وسوريا وفلسطين) ، وتركيا، وفى هذه المناطق كلها ساعدت أوضاع اقتصادية متدنية على جموح وانفلات هويات عرقية ودينية وطائفية وثقافية كانت نائمة أو مكبوتة ثم استيقظت على صدمة العصر وظروفه. كل ذلك مع تداخل فى العصبيات له جذوره وعقده ، ثم وفرة فى السلاح ـ مع نقص فى كفاءة القيادة ـ أدى إلى تقلصات مؤلمة ودموية .

٤ ـ ولقد استفحل ذلك كله من واقع أن مستوى القرار السياسى على مستوى العالم أضاع الكثير من قدرته على الرؤية الشاملة وعلى التصرف المستنير .

فصنع القرار فى الولايات المتحدة مبالغ فى عصبيته بتأثيرات المأزق الاقتصادى

الاجتماعى ومضاعفاته ، وهو أحيانا مبالغ فى سطحيته بحكم ضغط الإعلام وشحناته المكهربة . وصنع القرار فى روسيا مبالغ فى انفعالاته بعد تجربة أشبه بضربة الزلزال . وصنع القرار فى أوروبا مبالغ فى حذره يهتم بثروته ومستوى حياته ، ويخشى أن يتورط . وصنع القرار الصينى مهتم بتأكيد حقه فى المساواة مع الكبار بعد إنكار طال عن حده . ثم إن القرار اليابانى مازال بعد حائرًا بين زهرة « الكريز انتيم » وسيف « الساموراى » .

وهكذا فإنه فى مرحلة من أخطر مراحل التاريخ الإنسانى يتولى إدارة شئون القرية العالمية مستوى من القيادات بعضها لا يقدر وبعضها لا يستطيع وبعضها لا يريد .

٥ ـ إن هناك على مستوى العالم تناقضات حادة بين الأغنياء والفقراء ، وقد كانت هذه التناقضات موجودة دائمًا ، وجرى التعبير عنها مرة بتقسيم الكرة الأرضية إلى عالم أول وعالم ثان وعالم ثالث . ثم شاع فيها بعد تعبير الشمال والجنوب . . شمال غنى وجنوب فقير . وتلك كلها تحديدات أصبحت تفتقر إلى الدقة فى تغطية حقيقة التناقض بين أغنياء وفقراء .

فالصين مثلا من العالم الثالث ، أو هكذا كان حسابها ، لكنها تخطو الآن خارجه .

ونمور آسيا فى الجنوب ، ولكن من الذى يستطيع أن يحسبهم من الفقراء .

وإذن فإن التقسيمات المتعارف عليها لم تعد منطبقة على الحقائق المتغيرة .

والحاصل أنه لم يعد هناك مفر من تسمية الأشياء بأسمائها ، أى أغنياء وفقراء .

ولقد زاد من حدة التناقض بين الاثنين أن « القرية العالمية الواحدة » ـ إذا صح الوصف ـ جعلت كل طرف فى مرأى من الآخر ، وقد ترسخ بين الاثنين نوع من الخوف والكراهية يظهر أبرز نماذجه حيًا على شاطئ البحر الأبيض . أغنياء

فى الشاطئ الشمالى يخشون من نزوح فقراء الشاطئ الجنوبى إليهم ، وفقراء على الشاطئ الجنوبى يتذكرون أن الشاطئ الآخر جاء إليهم مستعمرًا ونهب ثرواتهم وذهب ، وعندما تصوروا أنهم يستطيعون البحث عن فرصة غنى أو عمل فيه قامت المتاريس والحواجز منيعة وعالية .

ثم تكفلت وسائل الاتصالات بتحويل التناقض إلى أزمة لأن التطلعات المشروعة للفقراء الذين أصبحت لديهم فكرة عن مستوى معيشة الأغنياء - حولت التناقض إلى عداء يوشك أن يستحكم .

وعندما تراجع الفقراء عن أحلام التنمية بفعل المصاعب ، بما فيها استغلال ونهب مواردهم وحقوقهم ، إلى الدين حماية وحصنًا ، تفجرت المواريث القديمة والتحيزات الثقافية الكامنة فإذا أوروبا تتحدث مهتاجة عن خطر الإسلام الزاحف ، وتتنادى لرد «بواتييه » اجتماعية ، حلت محل « بواتييه » عسكرية كاد بها الإسلام أن يدخل أوروبا لولا أن تصدى « شارل مارتل » لوقف زحف المسلمين .

أضيف إلى ذلك أيضا شعور الفقراء بالخيانة ، لأن الصفوة بينهم وقد اغتنت - انفصلت طبقيا وانضمت إلى أغنياء العالم متواطئة معهم ضد الفقراء من شعوبهم ، وقد ذهبت هذه الصفوة إلى أغنياء العالم ومعها ثرواتها . وربما يساعدنا أن نتذكر أن النظام البنكى العالمى تدور فيه الآن :

٤٣٠ بليون دولار تقريبًا من أموال مواطنين سعوديين (لاتشمل الملكية العقارية أو الزراعية) .

١١٢ بليون دولار تقريبا من أموال مواطنين مصريين .

٧٤ بليون دولار تقريبا من أموال مواطنين جزائريين .

٦٥ بليون دولار تقريبا من أموال مواطنين سوريين .

وغير هؤلاء كثيرون ، وهذا عدا حقيقة أن الدول التى ينتمى إليها أصحاب هذه الثروات أصبحت كدول غارقة فى الديون ، حتى تلك التى كانت تعتبر ضمنها من أغنى الأغنياء .

٦ ـ إن العالم يشهد اليوم ثورة جديدة يمكن تسميتها بأنها « ثورة الثراء » وهى ثورة تفرعت عن الثورة الالكترونية ،وإن كانت قد اكتسبت لنفسها قوة اندفاع مستقلة ومستبدة . إن هذه الثورة بدأت ببطاقات الائتمان التى شجعت على أنواع من الاستهلاك الملهوفة لم تتوفر تكاليفها بعد لدى أصحابها ، وهم يشترون اليوم ويدفعون فى يوم آخر ، ولحق بذلك اتساع نطاق بورصات العالم وحقيقة أنها أصبحت تعمل ٢٤ ساعة كل يوم فى ملايين من الأسهم والسندات والمضاربة على العملات والعقود الآجلة لسلع غير موجودة ، وهى عملية حجمها الآن تريليون دولار كل يوم ، وهى تأخذ وتعطى كميات هائلة من الثروات بنبضات الكترونية خاطفة .

إن هذه الثورة من أجل الثروة أضافت عقيدة إلى العقائد العالمية التى لم تسقط ، إذا كنا قد عرفنا أنواعا من الـ "Isms" مثل الشيوعية "Communism" والرأسمالية "Capitalism"فنحن نشهد اليوم "Ism" جديدة أطلق عليها لورد « موج » رئيس تحرير « التيمس » الأسبق ، أثناء حوار ساخر فى لندن أخيرا ـ وصف "Now Nowism" أى « هنا والآن وفورا » فى طلب الثراء السريع ، وذلك يشكل حالة « قرصنة » على مستوى العالم ، لايعرف أحد ماذا تفعل به وإلى أين تقوده ؟ وبأية معايير ، وأية ضوابط؟ ، وإن كنا قد رأينا من وقت قريب موقعة قراصنة تحبس الأنفاس ، وذلك حين قامت مجموعة «سورو» بغارة مفاجئة على الجنيه الاسترلينى . وفى ظرف ساعات أرغمته على الخروج من سلة العملات الأوروبية ، وخفضت قيمته بنسبة ٢٥٪ ، وحققت لنفسها أرباحا يتراوح تقديرها مابين ٨ إلى ١٠ بلايين دولار .

٧ ـ إن فقراء العالم يعيشون حالة دوار ، فقد تبخرت ثورة التطلعات التى رافقت ثورة التحرر الوطنى ، فإذا السيطرة تعود فى صورة أخرى يمثلها البنك الدولى ، وصندوق النقد الدولى ، وقد أصبحت دبلوماسية كل منهما بديلا ـ فى مطالع القرن الواحد والعشرين ـ لدبلوماسية البوارج التى عرفتها مطالع القرن التاسع عشر ، وهذا التشبيه ليس من عندى ، وإنما هو للاقتصادى البريطانى الشهير السير « آلان والترز » الذى كان لسنوات عديدة مستشارًا لمارجريت تاتشر ، وقد كتبه ونشره قبل أيام فى صحيفة «التيمس» .

٨ ـ والأغنياء اليوم يملكون فرض الشروط على الفقراء فى ميادين التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وقد تأكدت سيطرتهم بسلطة البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى ، وأضيفت إليهما أخيرا منظمة التجارة العالمية التى انتهت إليها مفاوضات الجات ، والخشية لدى كثيرين أن شروط التجارة المقبلة سوف تجهض آمال التقدم لدى الفقراء، وسوف تزيد الفجوة بينهم وبين الأغنياء ،ولعلها سوف تضيف إلى النزح الاستعمارى القديم للموارد نزحا جديدا باسم حرية التجارة هذه المرة . وربما يستوقفنا أن تقديرات آثار جولة أورجواى تعطى مجموعة الاتحاد الأوروبى الأولى وحدها أرباحا جديدة تقدر بثمانين بليون دولار سنويا ، فى مقابل خسائر للدول الأفريقية البائسة جنوبى الصحراء تقدر بحوالى ثلاثة بلايين دولار سنويا .

□ □ □

وإذا قلنا إن الأفكار هى المناخ الذى يعيش الناس فيه ،إذن فنحن فى أجواء شديدة الغرابة ، وأقرب إلى الواقع أن نقول إن العالم يعيش عدة مناطق مناخية فى وقت واحد . فهناك رياح باردة ورياح ساخنة فى نفس اللحظة ، وعواصف

ثلجية وعواصف خماسين فى نفس اللحظة ، وشمس ربيع وظلمة صقيع فى نفس اللحظة ، بسبب العالمية فى الوسائل والخصوصية فى الحقائق . ونتذكر أن وسائل الاتصال هى أجنحة الأفكار والقيم والأحلام ، لكن الحقائق على الأرض تمشى ولا تطير .

وهكذا فإن الأفكار والقيم والأحلام تنتقل من بيئة إلى بيئة مع وجود مناطق ارتفاع ومناطق انخفاض فى الضغط ، مما تولدت عنه اضطرابات وزوابع عصفت بالناس وربكت توجهاتهم ، فى حين أن الحقائق تتحرك ببطء .

وهكذا دخلت مناطق كثيرة من العالم فى دوامات لايقر قرارها :

□ فى العالم الغنى انسياق إلى المادية ينتهى بالإنسانية إلى حالة فراغ موحش وعدمى .

وفى مقابل ذلك ففى العالم الفقير استسلام غير واع للقيم الروحية ، وكأن هذه الدنيا لا تستحق من أحد أن يحياها إلا معرضًا عنها أو كارها لها .

□ وفى العالم الغنى رغبة فى الاستئثار بلغت حدودًا يصعب قبولها ، حتى أصبحت فى بعض الأحيان نزعات من السيطرة المتوحشة .

وفى مقابل ذلك ففى العالم الفقير وهم بأن الحق يجىء لأصحابه نائمين باطمئنان فى انتظاره ، أو داعين من أجله فى تبتل ، أو صارخين بالعصبية فى طلبه . . وكلها شروط استحالة .

□ وفى العالم الغنى إدراك لدور الدولة فى عمليات التنمية والتجارة، يكفينا مثالاً عليه تدخل « مارجريت تاتشر » بنفسها ، و« جون ماجور » بعدها ، فى إقرار وتمرير صفقة «اليمامة» لتزويد السعودية بنظام « التورنادو » للدفاع الجوى ، وهى صفقة حجمها مائة بليون دولار بحساب المعدات والتجهيزات وقطع الغيار اللازمة لها لسنوات قادمة .

وفى مقابل ذلك دخان أزرق يخطر الفقراء بأن الدولة قد أعفيت من مسئولياتها فى العصر الحديث ، وأنها الآن حكم بين الطبقات وممثل لأبهة الوطن فى المظاهر والمراسم والمناسبات .

وحين حاول بعض الفقراء أن يجددوا فقد سقطوا فى شراك معدة بعناية ، بينها استبدال غيبية حتمية التقدم بغيبية مطلقات السوق ، وبينها الانتقال من احتكار الدولة الكاسح لعملية التنمية إلى اعتزال الدولة الكامل لعملية التنمية، وبينها نسيان الفارق بين استيراد التكنولوجيا من محتكريها وبين الانفتاح عليها والمشاركة فى صنعها ، وبينها قطع الوشائج بين العمل والغنى وبين التنظيم والنجاح وبين توازن القوى وتوازن المصالح ناسين أن واحدة تترتب منطقيا على الأخرى ، وهكذا .

ولقد راح الكثيرون يتحدثون جزافا عن الديمقراطية وحقوق الإنسان دون وعى كاف بأن هذه القيم العظيمة نتائج أكثر منها مقدمات . وهى نتائج لتفاعلات اقتصادية اجتماعية تصل المجتمعات معها إلى حالة من التوازن تجعل من كل مواطن طرفا مسئولا وليس مجرد رعية طيعة ، وحالة المواطنة درجة لاتصل إليها الأمم إلا بعد صراعات طويلة وقاسية يستحيل اختصارها، وإن أمكن تسريعها ، ويظل أمرها مرهونا فيما أظن باتساع الآفاق الممكنة للصعود الاجتماعى .

وإذا تعطل أو توقف الحراك الاجتماعى بين الطبقات وبين الشعوب وبين الأمم، إذن فنحن أمام تناقض محتدم على مستوى العالم ، ونحن أمام انفلاق بين سلطة قادرين وتمرد مستضعفين ، وهى جبهة مواجهة عريضة عنيفة وطويلة .

□ □ □

حتى الآن كنت أتحدث من منظور واسع . وربما أن الوقت قد حان لبعض التركيز على العالم العربى ، لكى نصل فى النهاية إلى مصر والقرن الواحد والعشرين .

وعلى مستوى العالم العربى فإننا ندخل إلى القرن الجديد ونحن فى إسار مجموعة من العوائق لا أعرف كيف نتخطاها إلى القرن الجديد . وسوف أتحدث عنها باقتضاب ، ولو كمجرد رؤوس عناوين :

١ ـ إن العالم العربى أوقع نفسه فى شراك نصبها له الآخرون بوعى ، ونصبها لنفسه بغير وعى ، ووقع بسبب ذلك أسيرًا لتناقضات لايظهر لها حل :

□ تناقض بين الدين والعلم يلهى عن حقيقة أن الله الذى خلق الإنسان جعل له قلباً وعقلاً فى نفس كيانه ، وكلاهما فاعل فى اتساق مع الآخر ، فالوحى الإلهى لايمكن أن يكون إلا صادقًا ، والبرهان العقلى لايمكن أن يكون إلا سليماً ، وأى تناقض بين الاثنين تعسف مفتعل ، وباب الاجتهاد هو الجسر المفتوح لعبور فجوة هذا التعسف المفتعل .

□ تناقض بين العروبة والإسلام يضع أحدهما فى تباعد عن الآخر ، فى حين أن التجربة التاريخية والإنسانية تؤكد أن المحتوى الحضارى للقومية العربية إسلامى ، والغريب أن المفكرين من المسيحيين أول من يعترف بهذه الحقيقة فى حين ينكرها بعض المشتغلين بالفكر الإسلامى .

□ تناقض بين الوطنية والقومية كأن كل واحد منا لا يملك غير هوية واحدة تستبعد إلى حد الإلغاء كل شخصية سواها . والغريب أن الأوروبى يستطيع أن يكون فرنسيا مثلاً ، وأن يكون أوروبيًا ، وأن يكون غربيًا ، وأن يكون مسيحيًا ـ كله فى نفس الوقت. وأما نحن فمكتوب علينا أن نكون بعدًا واحدًا فقط ، فإذا تعددت الأبعاد حل الشرك .

□ تناقض بين الأصالة والحداثة ناسين أن القادر على شوط الحداثة هو ذلك الذى يملك قاعدة الأصالة ، غافلين عن أن الأمة العربية بمختلف شعوبها مؤسس نشط فى البنيان العالمى للحضارة الإنسانية .

□ تناقض بين الحاضر والماضى يورطه باستمرار فى إعادة ترتيب التاريخ وكتابته بحيث يجعل ماوقع بالأمس ، أو مايدعى بوقوعه فى الأمس ، مبررًا لما يجرى هذه اللحظة ومايتداعى بعدها ، وهذا خطر يسلب الأمم تراكم تجاربها ويحصرها فى تراكم أخطائها .

□ بل ووصل التناقض إلى أن الأمة أصبحت مولعة بالبحث عما يفرقها أكثر من بحثها عما يجمعها ، وأحيانا يصبح هذا البحث لعبة عبثية مكلفة وباهظة فى أعبائها النفسية والسياسية والمادية أيضا . فهناك معركة لا لزوم لها بين العلمانية والأصولية ، ومعركة بين القطاع الخاص والقطاع العام ، ومعركة بين القبائل والمدن ، كما تحولت السياسة إلى عداوات بين المراحل التاريخية وقياداتها المختلفة .

٢ ـ إن العالم العربى بدد ثروة من أكبر الثروات التى أتيحت فى التاريخ لأمة تؤسس نفسها ، أو حتى لإمبراطورية تبنى قوتها .

وعلى سبيل المثال فإنه فى ربع القرن الأخير بلغ مدخول الأمة العربية من مواردها المتعددة ـ وأهمها البترول ـ مايقدر بأربعة تريليونات دولار ، ويمكن أن يقال إجمالاً إن تريليونًا منها توجهت لبناء مشاريع بنية أساسية فى البلاد العربية إلى جانب بعض مشروعات الخدمات والإنتاج ، ويمكن وفق نفس التقدير الإجمالى أن يقال إن تريليونا ثانية ذهبت فى مشتريات سلاح يعلم الله ما فعل وما يفعل ـ لكن نصف المدخولات العربية ـ ٢ تريليون دولار ـ تحتاج إلى من يبحث عنها .

٣ ـ إن العالم العربى فقد الإحساس بهويته وتملكته نزعات القبائل المتحاربة ، ونتيجة لذلك فقد ضاع منه جامعه المشترك ومواقفه المشتركة وهدفه المشترك .

وربما كانت نظرة واحدة إلى حال جامعة الدول العربية كافية لإظهار مدى التردى الذى وصل إليه الوضع العربى العام . ومن المفارقات أن هذه الجامعة تستعد قريبا للاحتفال بالذكرى الخمسين ـ نصف قرن على تأسيسها ـ لكن المشهد العام باعث على الحزن خال من الفرح !

ولعلى استدرك بأننى واحد من الناس الذين يتمنون المحافظة على الجامعة وميثاقها برغم كل الأحزان ، وحتى إذا اضطررنا إلى وضعها فى ثلاجة التجميد العميق فإن بقاءها ـ رمزا ومؤسسة ـ قد يكون نافعًا ذات يوم إذا عادت العقول إلى الرؤوس ، وعاد البصر إلى العيون ، وعادت البصيرة إلى القلوب !

٤ ـ هناك أزمة شرعية . فمعظم الأنظمة فى العالم العربى تحكم بقوة الأمر الواقع دون أساس يقوم عليه بنيان سياسى يكفل سهولة الحركة ويسرها ، ولعل ذلك يفسر جزءًا من اختناقات الفكر والعمل فى العالم العربى ، مما أعطى الفرصة لهبوب عواصف من السخط والغضب . ثم إن أزمة الشرعية لاتقتصر على قضية السلطة ، وإنما هى تمد ظلها إلى مشروعية الثروة ، فهناك ثروات كبيرة وكثيرة فى العالم العربى لا تبدو مبررة ، أو مستندة إلى حق طبيعى بالإرث أو مكتسب بالعمل ، وهذه قضية بالغة الحساسية خصوصًا إذا تذكرنا أن الشرعية فى أساسها قبول طوعى وليست فرضًا بالقسر ، وإلا فإن السخط والغضب السياسى يمكن أن يلحق بهما سخط وغضب اجتماعى ، وهذه معا شحنة خطرة لا تستطيع أن تتحملها مجتمعات هشة لم تترسخ فيها بعد سيادة الدساتير والقوانين .

٥ ـ هناك أزمة خلافة ، وهى نتيجة طبيعية لما سبق . فنحن لا نعرف مثلا ماذا بعد «حسنى مبارك » فى مصر ، ولا ماذا بعد « حافظ الأسد » فى سوريا ، ولا ماذا

بعد «الأمين زروال » فى الجزائر ، ولا ماذا بعد « زين العابدين بن على » فى تونس، ولا ماذا بعد « صدام حسين » فى العراق ، ولا ماذا بعد « معمر القذافى » فى ليبيا ؟

بل إنه حتى فى النظم الوراثية تبدو قضية الخلافة ملتبسة بالظنون . ولقد صدر أخيراً تقرير عن معهد واشنطن للدراسات السياسية كان عنوانه « ماذا بعد فهد؟» ، فالخلافة فى السعودية قضية تحيط بها أجواء عائلية حرجة . ويمكن أن نضيف « ماذا بعد السلطان قابوس » فى عمان وقد تزوج ابنة عمه وانتهى زواجهما بعد سنتين دون أن ينجبا ابنًا تكون له ولاية العهد ؟ ، وماذا بعد «الحسن » فى المغرب أو بعد « الحسين » فى الأردن رغم أن كليهما سمى لنفسه ولى عهد ؟

ويتصل بمشكلة الخلافة أن هناك تصلبًا فى شرايين الحياة العامة فى العالم العربى، فالدم لا يتدفق بحرية ولا يتجدد بحيوية ، ويكفى أن نتذكر أن أكثر حكام العرب شبابا وأصغرهم سنا ، وهو « معمر القذافى » مضى عليه فى السلطة ربع قرن بأكمله ، من سنة ١٩٦٩ إلى سنة ١٩٩٤ ، وهذا وضع لا أظن أن له مثيلا فى بقعة أخرى من عالم نقول إن عواصف التغيير تهب عليه وتهزه إلى الأعماق هزًا .

٦ ـ إن العالم العربى يعيش فى أسر أكبر حشد من القوانين تعرفه أى منطقة غيره ، فنحن نعيش تحت سلطة القوانين التى صدرت لحماية النظم الملكية ، والقوانين التى صدرت لحماية النظم الثورية ، والقوانين التى صدرت لحماية المكاسب الاشتراكية ، والقوانين التى صدرت لحماية الأمن القومى ضد إسرائيل ، وضد الغرب ، وضد الشيوعية ، وضد الإرهاب ، والقوانين التى صدرت لضرورات حالة الحرب ، والقوانين التى صدرت لمقتضيات حالة السلام . . وكله باق بصرف النظر عن تغير الظروف وتغير العصور وتغير القرون!

٧ ـ ونحن نتصور أننا مقبلون على عصر من السلام مع إسرائيل ، ولكن السلام اختيار حر يقوم ـ إذا قام ـ على تراض بالتوافق يضمن مصالح وأمن جميع الأطراف . والسلام الذى يجرى صنعه فى العالم العربى الآن لا يبدو سلامًا حقيقيًا قادرًا على الازدهار ، وفى صميم الموضوع فإنه سلام يقوم على امتلاك إسرائيل لسلاح نووى ، وقصور الآخرين حتى عن مقدرة الدفاع عن النفس فضلاً عن التمسك بالحق . وربما يكفينا أن ندرس بعمق كاف اتفاق « غزة وأريحا أولاً » ، وهو اتفاق يستحيل وصفه إلا بأنه اتفاق إذعان . ثم إن الطريقة التى يجرى بها التعامل مع إسرائيل توحى فى كل تفاصيلها بأنها عملية تسابق إلى جائزة بأكثر مما هى لقاء مع اختبار مصائر وأقدار !

ولعله من اللافت للنظر أن إسـرائيل تغير دورها ، فمن الضـامن للإمبراطـورية البريطانية فى وقت « وعد بلفور » وقت الحرب العالمية الأولى ، إلى الضامن للمصالح الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية ، إلى الضامن لحصار حركة القومية العربية وقت الحرب الباردة ـ والآن فإن إسرائيل تقدم نفسها كضامن للعالم ضد « خطر الإسلام الإرهابى » ـ كما يدّعون عليه . وكان وزير خارجية إسرائيل يشارك أخيرا فى اجتماع المجلس الأوروبى فى أسبانيا أواخر سبتمبر الماضى ، وكان أهم ماقاله فى جلسة مغلقة أن الغرب عليه أن يقف وراء إسرائيل باعتبارها الحاجز للإسلام والواقى لأوروبا ضد زحفه وعدوانه !

٨ ـ إن السياسة العربية أضاعت منذ سنة ١٩٧٤ وحتى سنة ١٩٩٤ ـ كل الفرص التى أتاحتها لها تضحيات عزيزة وغالية لكى تصنع سلام الشجعان ، ثم هرولت بعد ضياع الفرص إلى قبول شروط الأمر الواقع وطغيانه . وقد رضخت تحت ضغوط ثقيلة وعنيفة إلى التفاوض بغير شروط مسبقة ، وكان معنى ذلك

أنه القبول بشرط القوة ولا شىء غيره ، وكان التبرير أنه لم يكن هناك بديل . وحين يصل القرار السياسى ـ أى قرار سياسى ـ إلى الإقرار بأنه لا يملك بدائل غير ما هو معروض ـ أو مفروض ـ عليه ، إذن فإن العمل السياسى يفقد أهليته وشرعيته . فمعيار قيمة القرار أنه اختيار بين بدائل ، فإذا لم يعد هناك غير بديل واحد فلا مفر من التسليم بأنه « سلام الإذعان » وليس «سلام الشجعان » .

٩ ـ إن هناك خريطة سياسية واقتصادية تُرسم من جديد للمنطقة ، وأظنها أهم وأخطر من خريطة « سايكس بيكو » القديمة . فتلك الخريطة القديمة كانت عملية توزيع إرث الإمبراطورية العثمانية ، لكن الخريطة الجديدة تحاول أن تكون شهادة ميلاد ، وليس مجرد إعلام إرث ، لرجل مريض مات .

إن سنن الحياة طبيعة أشياء ، وتقلب العصور منطق أشياء ، لكن الإرادة الإنسانية تظل لها القدرة ـ إذا تسلحت بجسارة الفكر والفعل ـ على تطويع السنن والعصور وتعظيم الفائدة من متغيراتها . ولا يتأتى ذلك بالرضوخ الذى يهنئ نفسه بالواقعية ، ولا بالعناد الذى يعزى نفسه بالتزاماته المبدئية .

وما يجب أن نتحسب له هو أن الأمة تساق سوقا إلى طرق تجهلها ، والغريب أنها تمشى فى هذه الطرق بهمة وكأنها تحاول استباق الزمن . وربما أحيلكم إلى مايجرى فى الدار البيضاء اليوم حيث ينعقد اجتماع أشك فى أن بين العرب من يعرف مافيه الكفاية عن مطالبه ومقاصده ، رغم أن الكل يهرول بأقصى سرعة حاملاً ملفات تضخمت بالأوراق فى اللحظة الأخيرة !

١٠ ـ وهناك اختراق خارجى للعالم العربى لا أظن أن له سابقة فى حجمه طوال التاريخ العربى ، وهو اختراق من كل الاتجاهات من داخل كل دولة وأخرى فى الداخل العربى ، ومن دول كثيرة وعديدة من الخارج . وهذا الاختراق

متعدد فى أشكاله وألوانه، فهو اختراق مالى ، واقتصادى ، وسياسى ، وأمنى، وإعلامى ، وثقافى .

وفيما يتعلق بهذا النوع الأخير من الاختراق ، وهو الاختراق الثقافى فإنه من المحزن أن نلاحظ أن زمام المبادرة الإعلامية والثقافية فى العالم العربى انتقل من أكثر المراكز استنارة وتقدما إلى أكثرها تخلفا ، بالذات فى مجال حرية تداول المعلومات وأهلية الريادة الثقافية .

١١ ـ وقيادات العالم العربى تقع فى محظور أنها تمارس السياسة دون أن تقرأ التاريخ ومن ذلك مثلا ذلك المشروع الذى اتفقت إسرائيل والأردن ـ برعاية الرئيس «كلينتون » ـ على دراسته والإعداد لتنفيذه ، وهو شق قناة بين خليج العقبة والبحر الميت . إن أحدا لم يتذكر أن هذا المشروع مطروح من قبل « وعد بلفور» ، وأن له تكملة أخرى لا تحتاج إلى اتفاق بين الأردن وإسرائيل ، وهى معبر مائى من خليج العقبة إلى البحر الأبيض . وكان هذا المشروع ضمن المغريات التى قدمها « وايزمان » للحكومة البريطانية فى تزيين إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين . كانت حجته « إنكم تريدون مصر لقناة السويس، وفى وسعنا أن نعطيكم قناة بديلة لا تحمل أثقال متاعبكم مع مصر» . . والمشروع البديل بدأت خرائطه ورسومه تحت رعاية « كلينتون » . قناة من خليج العقبة تجتاز وادى عربة إلى شماله ، وفى منتصف الطريق محطة نووية تقوم بتحلية الماء وضخه فى أنابيب تتفرع فى كل اتجاه ، لكن القناة تستمر بعد ذلك إلى البحر الميت لتعيد منسوبه إلى ارتفاع ٢٠٧ أمتار وتستغل مساقط المياه فيه . غير ذلك فإن هذه القناة المالحة يكون لها فرع واصل إلى بقعة ما على البحر الأبيض ، والراجح أنها أسدود .

١٢ ـ والعالم العربى يعيش حالة تعتيم فى المعلومات يصعب قبولها فى عصر قنوات

الفضاء . ومن المفارقات أن هذه القنوات تعرض عليه كثيرا عما يجرى فى الدنيا، لكن أحدا لا يعطيه شيئا عما يجرى على أرضه ، وأغلبه مخفى وأقله ظاهر. بل إنه من المفارقات أن أحدا لا يعرف بالضبط حقيقة التأثيرات على عملية صنع القرار العربى ، ولا من الذى يؤثر . وربما زعمت أن معظم الرجال الأقوياء فى العالم العربى ليسوا من الظاهرين على المسرح ولا ممن تنشر الصحف صورهم .

وذلك غموض يثير القلق ويوقظ الشك !

١٣ ـ إن العالم العربى أصبح على نحو ما ميداناً من ميادين العنف إلى درجة القتل على طريقة أمريكا اللاتينية . ومن الصحيح أن هناك جماعات تمارس العنف إلى درجة القتل خروجا على القانون ، ولكن الدولة لاتملك أن ترد بنفس الأسلوب .

وعندما نسمع فى الجزائر مثلا بيانات تتحدث عن قتل أعداد من المشتبه فى أنهم «متطرفون إسلاميون» ، فإنه يحق لنا أن نفزع لأن الدولة هى حافظة القانون والقائمة على تطبيقه ، ولها أن تحقق وأن تتهم وأن تعاقب حتى بالإعدام . . ولكن ليس بالقتل فى الشوارع وبغير إجراءات أو ضمانات .

ولقد أنتهى من ذلك إلى أن القرن الواحد والعشرين فيما نستطيع أن نرى منه سوف يكون أشبه بشركة مساهمة يجلس ضمن مجلس إدارتها من أسهموا فى رأسمالها ، وأما العاطلون عن المساهمة ، أو الطالبون لوظيفة ، أو السائلون لمساعدة ، فمن الصعب أن نراهم فى مقاعد مجلس الإدارة .

وسؤالى المحورى هو : ما الذى يستطيع العرب أن يشاركوا به فى رأسمال الشراكة العالمية فى القرن الواحد والعشرين .

وهنا أصل إلى مصر . ولن أطيل فى الحديث ، وإنما سوف أترك لكم أنتم أن تجيبوا على هذا السؤال لأسباب عديدة :

أولهـــا : أن لدىَّ هواجس لا أريد أن أثقل عليكم بها ، بينها أننى أرى مستقبل التنمية والتجارة فى المنطقة على شكل أقاليم متكاملة أو شبه متكاملة ، وقد كانت لدينا فى وقت من الأوقات فرصة تنمية وسوق عربية مشتركة ، لكنها ضاعت لأسباب كثيرة . ومن الصعب تصور سوق شرق أوسطية واسعة تحقق فى الغد القريب مالم يتحقق فى الأمس القريب . لكن القطر الواحد محصور ، والبديل مابين المجال الواسع للمنطقة والمجال المحصور لبلد واحد هو الأقاليم التى يمكن أن تتشابك وتؤهل نفسها للاتساع عندما تتهيأ ظروفها . وأستطيع أن أرى فى المستقبل المرئى إقليم تنمية وتجارة إسرائيليا ، يضم إسرائيل والأردن والأجزاء المتبقية من فلسطين ، وربما سوريا ولبنان فى وقت من الأوقات ، وأظن أن هذا الإقليم سوف يمد أصابعه وأيديه فى اتجاه الخليج . وأستطيع أن أرى اقليم تنمية صغيرة وتجارة كبيرة ـ خليجيا يفضل أن يتجه إلى أمريكا وأوروبا . وأستطيع أن أرى إقليم تنمية وتجارة مغاربيا يربط نفسه بشكل أو آخر مع السوق الأوروبية . وأستطيع أن أرى إقليم تنمية وتجارة افريقيا يشد السودان إلى مجموعة أو أخرى فى شرق افريقيا . وخشيتى أن مصر سوف تجد نفسها وحيدة وسط هذه الأقاليم، كما أننى لست واثقًا أنه سوف يكون من حق مصر وقتها أن تلوم أحدا .

وأكبر هواجسى أن أقاليم التنمية والتجارة سوف تعطى نفسها قوة تأثير سياسى . ومع تفوق القوة الإسرائيلية ، ومع التنافر إلى حد العداء بين العرب إلى جانب ضعفهم ، فإن ذلك قد يفتح الباب لقوة التأثير الإسرائيلى تمارس دور ضابط التفاعلات والحكم فى العلاقات . وبعض ذلك بدأ بالفعل ، فإسرائيل تتوسط لأطراف عربية لدى واشنطن ، وهى تمهد لأطراف عربية أخرى فى علاقاتها مع الإعلام الدولى، وهى تقوم الآن

بتمرير معلومات، وقد تتحول المعلومات إلى نصائح. ولاأتجاوز إذا قلت إن المخابرات الإسرائيلية تقوم بإعادة تنظيم مخابرات دولتين عربيتين على الأقل ، كما أن دولة عربية واحدة ـ حتى الآن ـ تطلب خبرة عسكرية إسرائيلية !

لدىَّ هواجس أخرى لا أريد أن ألح عليها ، وإن ذكرت منها تخوفى من كل مايجرى فى الجنوب على ضفاف النيل وحولها ، وذلك بالنسبة لنا إقليم مصالح وروابط استيقظت فيه الفتنة وظهر الشر .

ثانيهـا : إن لدىَّ اعتقادا بأنكم أعرف وأخبر منى بحجم رأس المال الذى تستطيع مصر فى ظروفها الراهنة أن تقدمه لشراكة القرن الواحد والعشرين . ومع ذلك دعونى أقول بصراحة إننى لا أعتقد أن نصائح الصندوق والبنك وشروط الجات كلها كافية لتكوين رأس المال المطلوب. كذلك لا يكفى ذلك الضياع فى ختان البنات، والعلاج بالجن ، وغرس خنجر فى رقبة «نجيب محفوظ » لأنه قال كلمة تقتضيها مكانته المتميزة ، وإطلاق الرصاص على واحد من المتهمين بهذا الفعل دون أن تسمع منه كلمة يقتضيها حكم القانون الذى لا يعرف التمييز، وغير ذلك وغيره مما يأخذنا ويشغلنا هذه الأيام. تلك كلها ليست مجالات لفكر أو إرادة تدخل بتواضع القادرين إلى مقعد فى مجلس إدارة العالم فى القرن الواحد والعشرين.

ثالثهـا : وربما أهمها ، أنكم تستطيعون أكثر منى تطبيق مطالب علم الإدارة على أحوالنا فى مصر . ولقد بدأنا هذا الحديث بعرض لهذه المطالب ، وفعلنا ذلك لنجعل من هذه المطالب مرجعية نعود إليها ونقيس عليها . ولنا الآن ـ وعلى ضوء ماهو جار فى العالم وحاصل فى الإقليم الذى نعيش فيه ـ أن نتساءل :

□ هل لدينا الهدف الواضح والمحدد ؟

□ هل يملك هدفنا الواضح والمحدد إمكانية واقعة أو مضمونة تسمح بتحقيقه؟

□ هل تتوفر لهذا الهدف الواضح والمحدد والممكن مشروعية القبول من أصحابه ومن العصر ؟

□ هل تعطى الحياة السياسية لهدفها أصلح وأنضج العناصر ؟

□ هل تعطى الحياة السياسية لقوى الشعب المصرى حقه فى الرقابة على إدارة العملية السياسية بمجملها ؟

قلت لكم ومازلت أقول إنكم أعرف وأخبر منى بحجم رأس المال المطلوب للشراكة مع العالم ، ثم إنكم أعرف وأخبر منى بمطالب الإدارة اللازمة لرأس المال الوطنى الداخل فى الشراكة العالمية للعصر الجديد .

بقى أن أقول ـ مشجعا وليس معتذرا ـ إن الصورة التى رسمتها فى جولة واسعة على عرض الأفق أمامكم ليست سلبية كما قد يبدو لأول وهلة ، ذلك أنه عن طريق تشخيص المشاكل يمكن التوصل إلى العلاج . فالتشخيص هو طرح السؤال ، والجواب هو تحديد الدواء الذى يحصل به الشفاء .

وقد أجازف وأقول إن هناك أسبابا للتفاؤل بالشفاء ـ حقيقية وعلى أساس :

أولهـــا : أن هناك عملية حراك اجتماعى ظاهرة فى مصر ، وهى نتاج طبيعى لفترات طويلة من التنمية الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية ، ورغم أنها كانت فترات قوطعت بأزمات من الحيرة والشك ـ فإن آثار فترات التنمية موجودة وفاعلة . ومع أن الظاهرة الغالبة على عملية الحراك الاجتماعى الآن فى مصر هى الظاهرة المالية غير المرتبطة بوسائل الإنتاج ، إلا أن قوة الأشياء قد تحول ذلك إلى ظاهرة اقتصادية ـ أكثر منها مالية ـ تنمو بها وتتسع معها طبقة متوسطة عريضة تستطيع أن تعطى للمجتمع المصرى نوعا من التوازن المطلوب يرسى قيمة العمل فوق نشوة المغامرة . وإذا

استطاعت هذه الطبقة أن تحقق ذاتها فإن دورها فى العملية السياسية سوف يكون أكيدا ومحققا ، وربما أنها تستطيع أن تشارك بنجاح فى إرساء قواعد تستند إليها آلية التغيير المأمون فى أزمنة مضطربة .

وثانيها : أن هناك رصيدًا هائلا من الكفاءات والخبرات المصرية مازال على أرض وطنه ، كما أن أجزاء منه منتشرة فى كل أنحاء الأرض . وإذا بدا فى الوطن الأم أمل فليس هناك شك فى أن هذا الرصيد الإنسانى الغنى بالكفاءات والخبرات قادر على أن يحمل مسئولية نقلة حضارية تستطيع أن تجعل هذا الوطن فى وضع يسمح له بأن يواكب العصر والعالم والقرن الواحد والعشرين .

وثالثها : أن هناك حالة قلق تدعو قوى كثيرة إلى عدم الرضا عما ترى ، وتحفزها إلى أن تفتش فى كل النواحى عن خيارات بديلة تومئ إلى مستقبل أفضل ، ومع أن حالة القلق والتفتيش عن بديل تعبر عن نفسها الآن بطرق قد لاتكون مقبولة أو مرضية - إلا أن الحقيقة تتبدى جلية ، وهى أن مصر غير راضية ، ثم إنها ليست مستسلمة لحالة من اليأس والقعود . وظنى - وربما أملى - أن وسائل العصر، مضافة إلى شحنة القلق ، مضافة إلى حراك اجتماعى نشيط ، مضافة إلى رصيد إنسانى غنى - قادرة كلها فى مستقبل غير بعيد على أن تتحول إلى طاقة إيجابية تصارع اليأس بالأمل ، ولا تصرع الأمل باليأس .

وأشعر أننى استنفدت وقتى أمامكم وزيادة . وإذن آخذ منكم الإذن ، شاكرًا ومعترفًا بالفضل وجميل الصبر وسعة الصدر .

رقم الإيداع ١٠١١١/ ٩٤
I.S.B.N 977 - 09 - 0243 - 8

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف . ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس ٣٩٣٤٨١٤
بيروت . ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف . ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣